

سورة الأنعام

معاني الكلمات :

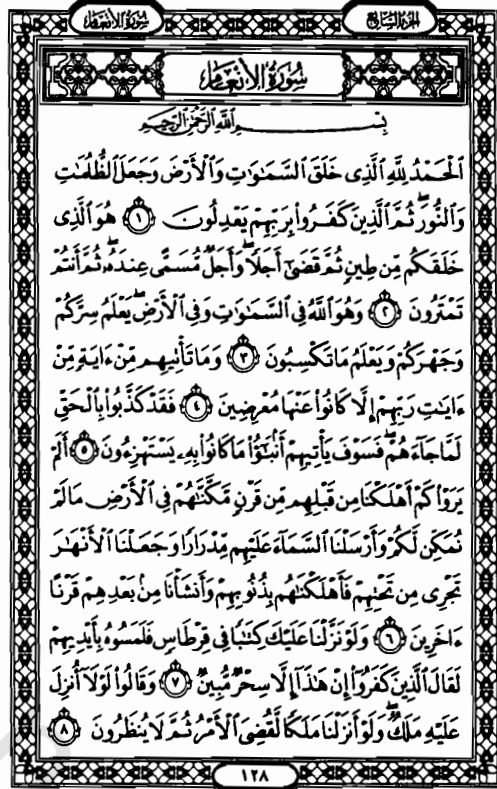
بربهم يعدلون : يسوون به غيره في العبادة .
قضى أجلاً : كتب وقدر زماناً معيناً للموت .
تمترون : تشكون في البعث . قرن : أمة من
الناس . مداراً : غزيراً كثيراً الصب .

قرطاس : كتاب من ورق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن الله عز وجل هو
المستحق للحمد والثناء لذاته ، ثناء عليه ،
وتسبيحاً له ، واعترافاً بوحدانيته .

٢ - أن نوقن بأن الآجال قدرت سلفاً
وقضيت في موتها وبعثها في أم الكتاب .



٣ - أن نستشعر مراقبة الله لنا في أقوالنا وأعمالنا فإنه مطلع علينا .

٤ - أن نتأمل ونعتبر من قصص الأمم السابقة التي أهلكتها الذنوب .

المحتوى التربوي :

تبدأ الآيات في سورة الأنعام بعرض الحقيقة الكبرى للعقيدة ، فتبدأ بالحمد لله ثناء عليه ، وتسبيحاً له ، واعترافاً بأحقية للحمد والثناء ، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء ، ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض ، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام ، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك ، وتعجب الآيات من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة تنطق بقدرة الله العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم ، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون . بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به .

واستكمالاً لتقرير ألوهية الله في الكون والحياة الإنسانية سواء ، يذكر مقتضيات هذه الألوهية فهو منشئ الخلق من طين ، وهو الذي قضى الآجال ، ولكن المخاطبين يشكون في هذا ولا يستيقنون ، وهو المتفرد بالألوهية ؛ لذا فكل الناس والمخلوقات من أرض وسما خاضع لناموسه على غير إرادة ولا اختيار ، ووجود السموات والأرض ، وتدبيرهما وفق هذا النظام

الواضح ، ونشأة الحياة - وحياة الإنسان في قمتها - وسيرها في هذا الخط الذي سارت فيه . كلاهما يواجه الفطرة البشرية بالحق ، ويوقع فيها اليقين بوحدانية الله .

والوحدانية هي القضية التي تستهدف السورة كلها - بل القرآن كله - تقريرها - وليست هي قضية وجود الله . فلقد كانت المشكلة دائماً في تاريخ البشرية هي مشكلة عدم معرفة الإله الحق ، بصفاته الحقّة ؛ ولم تكن هي مشكلة عدم الإيمان بوجود الله !

ومن ثم يعرض السياق موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الإسلامية في ظل هذا الوجود الغامر الباهر القاهر ؛ فيبدو هذا الموقف منكراً قبيحاً ، حتى في حس أصحابه الذين يواجههم هذا القرآن بهذه الحقيقة ! ويكسب القرآن المعركة في الجولة الأولى ، يكسبها في أعماق فطرة الناس ، على الرغم من مكابرتهم ومن عنادهم الظاهرين .

يقول صاحب الظلال : « إنهم يتخذون موقف الإعراض عناداً وإصراراً ، فليس الذي ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية ، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقّة ، هي التي يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها ، ليس هذا هو الذي ينقصهم ، إنما تنقصهم الرغبة في الاستجابة ، ويمسك بهم العناد والإصرار ، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر » .

وحين يكون الأمر كذلك . حين يكون الإعراض متعمداً ومقصوداً - مع توافر الأدلة وتواتر الآيات ووضوح الحقائق ، فإن هذا التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد .

وفي موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم - وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف وثمود بالحجر ، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب وفي رحلة الصيف للشمال ، فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب .

ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة ، وقد مكنهم الله في الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يُعْط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق ؛ ثم عصوا ربهم فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض ! فقد ورثها قوم آخرون ؛ فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر ! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً ! لقد أهلكوا وغربوا فما أحست هذه الأرض

بالخلاء والخواء ؛ إنما عمرها جيل آخر ؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان ؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هناك أحياء .

ثم يمضى السياق يصور طبيعة العناد ، التى ينبعث منها ذلك الإعراض ؛ فيرسم نموذجاً عجيباً من النفوس البشرية ، ولكنه نموذج مع ذلك مكرور ، يجده الإنسان في كل عصر وفي كل بيئة وفي كل جيل ، نموذج النفس المكابرة ؛ التى يخرق الحق عينها ولا تراه !

والذى يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق ! وهو الإصرار مبدئياً على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلاً ! ولو أن الله - سبحانه - نزل على رسول الله ﷺ هذا القرآن ، لا عن طريق الوحي الذى لا يروونه ؛ ولكن فى ورقة منظورة ملموسة محسوسة ؛ ثم لمسوا هذه الورقة بأيديهم - لا سماعاً عن غيرهم ولا مجرد رؤية بعيونهم - ما سلموا بهذا الذى يروونه ويلمسونه ، ولقالوا جازمين مؤكدين ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ويستمررون فى التعنت والمحاكة والمعاندة فيقترحون أن ينزل الله ملكاً . ولكن سنة الله أن ينزل الملائكة - حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم - أن ينزلوا للتدمير عليهم ، وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار ، ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكاً ، لقضى الأمر ، وتم التدمير ، ولم يُنظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل فهل هذا ما يريدون وما يقترحون ؟ وهلا يستشعرون رحمة الله فى عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين ؟ !

هكذا يقفهم السياق وجهاً لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم ، وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم ، وجهلهم بسنة الله فى تنزيل الملائكة ، وهم بهذا الجهل الذى يكاد يدمر عليهم حياتهم ، يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ، ويتعنتون فى طلب الدليل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الله سبحانه وتعالى - مستحق الحمد لذاته ، ويجب أن نوجه الحمد والشكر لله دائماً على نعمه العظيمة التى لا تُحصى .

٢ - كل إنسان أجله محدد لا يتقدم ولا يتأخر ، ويوم البعث محدد فى علم الغيب ، لا يعلمه إلا هو .

٣ - الله تعالى مطلع علينا فى سرنا وجهرنا ، فيجب أن نراقبه فى جميع أقوالنا وأعمالنا ؛ لأنه مطلع علينا ويحاسبنا .

٤ - يجب أن نأخذ العبرة والعظة من هلاك الأمم السابقة التى أهلكها الله بذنوبها .

معاني الكلمات :

حاق : أحاط وأنزل . خسروا أنفسهم : أهلكوها وظلموها بالكفر . ما سكن : ما استقر وحل . ولياً : رباً معبوداً وناصرأ معيناً . فاطر : مبدع ومخترع .

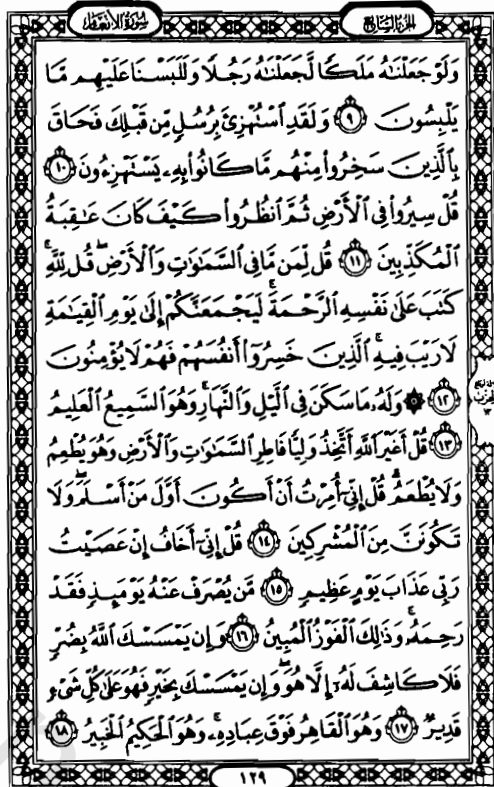
هو يطعم : يرزق عباده .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف الحكمة من إرسال الله تعالى للرسل من البشر .

٢ - أن نستشعر قدرة الله تعالى وملكيته لكل شيء ، وتصرفه في ملكه ورحمته الواسعة بعباده .

٣ - أن ندرك سنة الله في الأمم السابقة التي استهزأت بالرسل فأهلكهم الله بكذبهم وذنوبهم



المحتوى التربوي :

يستأنف السياق اقتراحات المباحكة من لا يريدون أن يطبقوا شرع الله ويؤمنوا برسوله ﷺ فيفترحون أن ينزل الله - سبحانه - ملكاً على رسوله ﷺ يصدقه في دعواه ، ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني ، خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله ؛ ولو شاء الله أن يرسل ملكاً يصدق رسوله ، لتبدى للناس في صورة رجل - لا في صورته الملائكية - وعندئذ يلبس عليهم الأمر مرة أخرى ، وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ورسول الله ﷺ يقول لهم : أنا محمد الذي تعرفونه أرسلني الله إليكم لأندركم وأبشركم . فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك في صورة رجل لا يعرفونه ، فلو أرسل الله ملكاً لجعله رجلاً ، وللبس عليهم الحقيقة التي يلبسونها ؛ ولما اهتدوا قط إلى يقين !

ثم بين ما وقع للمستهزئين بالرسل ، ودعوة المكذبين إلى تدبر مصارع أسلافهم ، والسير في الأرض لرؤية هذه المصارع ، الناطقة بسنة الله في المستهزئين المكذبين .

يقول صاحب الظلال : « إن هذه اللفتة بعد ذكر إعراضهم عناداً وتعتاً ؛ وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة ؛ وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة الله وحلم - لترمى إلى غرضين ظاهرين :

الأول : تسليية رسول الله ﷺ والتسرية عنه ، مما يلقاه من عناد المعرضين ، وعنت المكذبين ، وتطمين قلبه ﷺ إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين المستهزئين بالرسول ؛ وتأسيه كذلك بأن هذا الإعراض ، وهذا التكذيب ليس بدعاً في تاريخ الدعوة إلى الحق ، فقد لقي مثله الرسل قبله ؛ وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب ، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف .

الثاني : لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب ، وقد أخذ الله - من قبلهم - قروناً كانت أشد منهم قوة وتمكيناً في الأرض ؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء ، كما قال لهم في مطلع هذه الآيات ؛ التي ترج القلوب رجاً بهذه اللفتات الواقعية المخيفة .

ويأتى التوجيه القرآني لهؤلاء بالسير في الأرض ، فيستفيدوا من ذلك ثلاث فوائد :

يقول الإمام محمد أبى زهرة : « الفائدة الأولى : أن يعرفوا أن هذه الحياة التي يعيشون فيها ليس لها دوام ... والفائدة الثانية : أن أوائك الأقوام قد مكن لهم في الأرض بما لم يمكن لهم ، وما منعهم ملكهم الواسع ... من أن يؤخذوا كما يؤخذ أضعف الضعفاء والفائدة الثالثة : أن الله عذبهم بالإهلاك في الدنيا بسبب طغيانهم » .

ثم ينتقل السياق موجهاً الرسول ﷺ لمواجهة المشركين الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق ؛ فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم - مواجهتهم بالسؤال عن الملكية - بعد الخلق - لكل ما في السموات والأرض ، مستقصباً بهذا السؤال حدود الملكية في المكان : مع تقرير الحقيقة التي لم يكونوا هم يجادلون فيها ؛ والتي حكى القرآن في مواضع أخرى إقرارهم الكامل بها : « قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ » .

ويلحق بهذا التقرير أنه سبحانه : « كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » . كتبها بإرادته ومشيته ؛ لا يوجبها عليه موجب ؛ ولا يقترحها عليه مقترح ؛ ولا يقتضيها منه مقتضى إلا إرادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة - وهى - الرحمة - قاعدة قضائه في خلقه وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة ، ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً ؛ وتسعهم جميعاً ؛ وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم ، وهى تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات .

وبعد أن تقرر أن الله وحده هو الخالق ، وأن الله وحده هو المالك للأماكن والخلائق وملكية السموات والأرض وما فيهما وعلمه سبحانه وسمعه المحيطين بها ، يحى الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله ، والعبودية لغير الله ، والولاء لغير الله ، ويتقرر أن هذا مناقض لحقيقة الإسلام لله ، وأنه هو الشرك الذى لا يجتمع مع الإسلام ، وتذكر من صفات الله سبحانه : أنه فاطر السموات والأرض ، وأنه الرازق المطعم ، وأنه الضار النافع ، وأنه القادر القاهر ، وتذكر العذاب المخوف المرهوب .

يقول صاحب الظلال : « إن هذه القضية اتخذ الله وحده ولياً بكل معاني كلمة (الولى) ، أى اتخاذه وحده رباً ومولى معبوداً يدين له العبد بالعبودية ممثلة فى الخضوع لحاكميته وحده ؛ ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحده واتخاذها وحده ناصراً يُستنصر به ويُعتمد عليه ، ويتوجه إليه فى الملمات ، إن هذه القضية هى قضية العقيدة فى صميمها . فإما إخلاص الولاء لله - بهذه المعانى كلها - فهو الإسلام . وإما إشراك غيره معه فى أى منها ، فهو الشرك الذى لا يجتمع فى قلب واحد وهو الإسلام !

لذا تقرر الآيات فى حقيقة واضحة تستنكر على المشركين اتخاذ غير الله إلهًا ، وهو فاطر السموات والأرض ، ورازق لمن فيها وهو يُطعم ولا يُطعم ؛ لذا أمر أن يقول لهم : « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ، والإسلام وعدم الشرك معنهما المتعين ألا يتخذ غير الله ولياً . فاتخاذ غير الله ولياً بأى معنى - هو الشرك ولن يكون الشرك إسلامًا .

لقد أمر رسول الله ﷺ أن يعلن هذا الاستنكار فى وجه المشركين الذين يدعونه إلى الملاينة والمداينة ، وأمر كذلك أن يقذف قلوبهم بالرعب والترويع ؛ فى الوقت الذى يعلن فيه تصوره لجذية الأمر والتكليف ، ولخوفه هو من عذاب ربه ، إن عصاه فيما أمر به من الإسلام والتوحيد ، ثم إنه لماذا يتخذ غير الله ولياً ، ويعرض نفسه للشرك الذى تُهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذى أمر به ، ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعب ؟ أعل ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضرر فى هذه الحياة الدنيا ؟ رجاء نصرة الناس له فى الضراء ؛ ورجاء نفع الناس له بالسراء ؟ إن هذا كله بيد الله ؛ وله القدرة المطلقة فى عالم الأسباب ، وله القهر كذلك على العباد ؛ وعنده الحكمة والخبرة فى المنهج والعطاء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربيئاً :

١ - سنة الله فى الدعوات أن يكذب الرسل ودعاة الحق ويستهزأ بهم ، ولكن العقابة الحسنى للحق وأهله وعاقبة السوء لأهل الباطل والمشركين المستهزين .

٢ - ينبغى ألا نوالى غير الله فهو فاطر السموات والأرض ، ومالك لكل شىء ، ومتصرف بقدرته وقادر وقاهر فوق كل شىء فلا إله غيره ولا رب سواه .

٣ - وجوب اللجوء إلى الله تعالى دون غيره من سائر خلقه إذ لا يكشف الضر إلا هو .

٤ - لا يرفع الفقر أو المرض ولا يصرفهما إلا الله - تعالى - وكل صحة أو نعمة أو خير ، فهى من الله - تعالى - ولا أحد يستطيع ردها .

٥ - استشعار رحمة الله فى كل شىء يستجيش فى حس المؤمن الحياء من الله ، فإن الطمع فى المغفرة والرحمة لا يُجرئ على المعصية ، إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم .

معاني الكلمات :

من بلغ : من بلغه القرآن إلى قيام الساعة .

فتنتهم : معذرتهم أو عاقبة شركهم .

ما كانوا يفترون : يكذبون . ضل عنهم :

زال وغاب عنهم . أكنة : أغطية كثيرة .

وقرأ : ثقلأ في السمع وصماً . أساطير

الأولين : أكاذيب السابقين . يناون عنه :

يتباعدون عن القرآن بأنفسهم . وقفوا على

النار : حبسوا على ظهرها أو عرفوها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - بيان أن شهادة الله تعالى - لنبيه

محمد ﷺ بصدق رسالته هي أكبر شهادة .

٢ - بيان الحكمة من نزول القرآن

الكريم على النبي ﷺ .

٣ - بيان مصير المشركين الذين كذبوا بآيات الله وافتروا على الله الكذب .

المحتوى التربوي :

تتابع الآيات لتصف مواجهة النبي ﷺ للمشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء ، ويدعون رسول الله ﷺ أن يقرهم على هذا الذي هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به ! ورسول الله ﷺ يواجه هؤلاء المشركين ، ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم ، وبين توحيده وتوحيدهم ، وليقرر أنه لا موضع بلا اتفاق بينه وبينهم إلا أن يتخلصوا هم من بين من دينهم ويدخلوا في دينه ، وأنه لا وجه للمصالحة في هذا الأمر ؛ لأنه يفترق معهم في أول الطريق .

ويبدأ النبي ﷺ معهم سؤال الإشهاد العلني المفتوح : أي شيء في هذا الوجود كله هو أكبر شهادة ؟ أي شاهد تملو شهادته كل شهادة ؟ وكما يؤمر رسول الله ﷺ بالسؤال ، فهو يؤمر كذلك بالجواب ، ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم ولا جواب غيره في حقيقة الأمر والواقع . فإذا أعلن هذه الحقيقة : حقيقة أن الله سبحانه هو أكبر شهادة ، أعلن لهم أنه - سبحانه - هو الشهيد بينه وبينهم في القضية .



فإذا تقرر المبدأ : مبدأ تحكيم الله سبحانه في القضية ، أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه ، تضمنها هذا القرآن ، الذى أوحاه إليه لينذرهم به ، وينذر به كل من يبلغه في حياته ﷺ أو من بعد ، فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم ؛ لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية ؛ التى تقوم عليها الدنيا والآخرة ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنسانى ضمناً .

فإذا أعلن إليهم أن شهادة الله - سبحانه - متضمنة في هذا القرآن ، أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة في صورة التحدى والاستنكار لشهادتهم هم ، المختلفة في أساسها عن شهادة الله سبحانه ، وعالهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها ؛ وأنه يعلن غيرها ويقرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة ؛ وأنه يفاصلهم على هذا عند مفرق الطريق ؛ وأنه يتبرأ من شركهم .

ثم ينتقل السياق ليؤكد أن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله ؛ ويعرفون - من ثم - ما فيه من سلطان وقوة ؛ ومن خير وصلاح ؛ ومن طاقة دافعة للأمة التى تدین بالعقيدة التى جاء بها ؛ وبالأخلاق التى تنبثق منها ؛ وبالنظام الذى يقوم عليها ، ومحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله ؛ ويعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين !

إنهم يعرفون ما فيه من حق ، ويعرفون ما هم فيه من باطل . ويعرفون أن الجاهلية التى صاروا إليها ، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم ، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين ، أو يبقى عليها ، وأنها - من ثم - معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض ، ويستعلى هذا الدين ، ويكون الدين كله لله ، أى يكون السلطان في الأرض كله لله ؛ وأن يطارد المعتدون على سلطان الله في الأرض كلها ، وبذلك وحده يكون الدين كله لله .

ويقرر الله سبحانه وتعالى الحقيقة الكلية ؛ ويصف الحصيلة للشرك والمشركين الذين يفترون على الله الكذب ، ويكذبون بآياته عز وجل - بأن عاقبة أمرهم الخسار والبوار ، ويوم القيامة يسألهم عما أشركوا معه من شركاء فتتعرى الفطرة من الركام الذى ران عليها في الدنيا فيشعرون أنه لم يكن شركاً ولم يكن شركاء ، لم يكن لهذا كله من وجود لا في حقيقة ولا واقع وعندها « يفتنون » فيذهب الخبث ، ويسقط الركام : ﴿ نُوَلِّهِمْ تَوَلَّيَهِمْ لَمَّا كَفَتْ لِقَابُهُمْ رِيبًا مَّا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ إنها الحقيقة التى تجلت عنها الفتنة ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق والتعري من الباطل ، فالיום للجزاء لا للعمل .

لذلك يقرر سبحانه ، معجباً برسوله ﷺ من أمر القوم ، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء ، حيث لا وجود لشركتهم مع الله في الحقيقة ، وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه ، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء .

ويمضى السياق يصور حال فريق من المشركين؛ ويقرر مصيرهم في مشهد من مشاهد القيامة، يصور حالهم وهم يستمعون القرآن معطى الإدراك، مطموسى الفطرة، معاندين مكابرين يجادلون رسول الله ﷺ، ويدعون على هذا القرآن أنه أساطير الأولين، وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضاً.

يقول الإمام محمد أبى زهرة: «وهنا إشارتان:

أولاهما: أنهم ما جاؤوا يطلبون الحق، ولكن جاؤوا يجادلون، تقال للتسلية، ومنها ما يكون غير صادق، والجلد في أكثر أحواله تمويه، وليس طلب حق.

والثانية: أن الذين كفروا يقولون ما هى إلا أساطير الأولين بسبب كفرهم، فكفرهم سابق لرفضهم المعجزة».

يصور حالهم المقيت هكذا في الدنيا في صفحة، وفي الصفحة الأخرى يرسم مشهداً كئيباً لهم؛ وهم موقوفون على النار محبوسون عليها، وهى تواجههم بهول المصير الرعب، وهم يتهافتون متخاذلين؛ ويتهاوون متحسرين؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف، الذى انتهى بهم إلى هذا المصير، فيردون عن هذا التمنى بالتصغير والتحقيق.

يقول صاحب الأساس: «إن أمر الله لرسوله ﷺ أن يتذكر موقف المشركين يوم القيامة، وبراءتهم من كفرهم، وأمره بالاعتبار بذلك فيه تعزية لرسول الله ﷺ، وتسلية عن موقف الكافرين منه، وفي ذلك أيضاً عرض لنوع من أنواع القهر الإلهى، ولفت نظر إلى أن الدنيا وحدها ليست إلا وجهاً من أوجه التدبير الإلهى، ويظهر فيها بعض أنواع القهر، ولكن الآخرة هى الوجه الآخر».

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً:

١ - شهادة الله لنبيه ﷺ بصدق الرسالة، أكبر شهادة على صدقها، وصحتها ورداً على المشركين الذى يفترون على الله ونبيه الكذب وهم يعلمون.

٢ - القرآن الكريم كتاب نذارة وبشارة أوحاه الله لنبيه ﷺ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

٣ - أقبح أفعال المشركين ومن نسج على منوالهم من لا ينتفعون بالحق والقرآن، ولا يتركون أحداً ينتفع بذلك.

٤ - من الزاد للصبر على الشدائد والابتلاء النظر في عاقبة السابقين الظالمين الذين طغوا في الأرض الذين ينهون عن اتباع الحق، وينأون عن اتباعه، فهو لاء كما قال تعالى ﴿وَأَن يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

معاني الكلمات :

وقفوا على ربهم : حسبوا على حكم الله
- تعالى - للسؤال . بغتة : فجأة من غير شعور .

فرطنا فيها: قصرنا وضيعنا في الحياة الدنيا .
أوزارهم : ذنوبهم وخطاياهم . لكلمات الله : آيات وعده بنصر رسله . كبر عليك : صعب وعظم عليك . نفقاً في الأرض : طريقاً نافذاً في الأرض إلى ما تحتها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على صفات الكافرين ، ومبعث تكذيبهم وحقدهم على الدعوة .

٢ - بيان سنة الله في الأمم السابقة .

٣ - أن نعرف مكانة الصبر وأهميته



للدعاة وتذكر سنة الله في الدعوات .

المحتوى التربوي :

تواصل الآيات الحديث عن طبيعة المشركين ، وإصرارهم على باطلهم ، فهم يجزمون بأن لا بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء . وترسم الآيات صورتهم في الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ السؤال الذي يزلزل ويذيب ، فيجيبون إجابة المهين الذليل : ﴿ بَلَىٰ وَرَبَّنَا ﴾ . فيجبهون عندئذ بالجزء الأليم بما كانوا يكفرون فتنابهم الحسرة ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ! وفي النهاية يقرر حقيقة وزن الدنيا والآخرة في ميزان الله الصحيح .

يقول صاحب الظلال : « فالحياة - في التصور الإسلامي - ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ؛ وليست هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا ، إن الحياة - في التصور الإسلامي - تمتد طويلاً في الزمان وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد عمقاً في العوالم ، وتمتد تنوعاً في الحقيقة ، عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة في التصور الإسلامي تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المشهودة ، فترة الحياة الدنيا، وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله ، والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار !

وتمتد في المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ؛ داراً أخرى : جنة عرضها كعرض السموات والأرض ؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد في العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنساني في صورة لا يعلمها إلا الله . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال الإمام الرازي : « اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم في الدنيا ، وتحصيل لذاتها ، فذكر الله تعالى - هذه الآية تنبيهها على خساستها وركاكتها ، واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها ؛ لأن هذه الحياة العاجلة ، لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها » .

ثم يتجه السياق بعد ما بين حقيقة ووزن الحياة الدنيا والدار الآخرة في ميزان الله - إلى رسول الله ﷺ يطيب الله سبحانه، خاطره في أوله، مما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وهو الصادق الأمين، فإنهم لا يظنون به الكذب ، إنها هم مصرون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان ، لأمر آخر غير ظنهم به الكذب ! كما يواسيه - عز وجل - بما وقع لإخوانه الرسل قبله من التكذيب والأذى ، وما وقع منهم من الصبر والاحتمال ، ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهم . وفق سنته التي لا تبدل .

حتى إذا انتهى من المواساة والتسرية والتطمين ، التفت إلى النبي ﷺ يقرر له الحقيقة الكبرى في شأن هذه الدعوة ، إنها تجري بقدر الله وفق سنته ، وليس للداعية فيها إلا التبليغ والبيان ، إن الله هو الذي يتصرف في الأمر كله ، فليس على الداعية إلا أن يمضى وفق هذا الأمر ، ولا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئاً ، حتى ولو كان هو النبي الرسول ! ولا يستمع إلى مقترحات المكذبين - ولا الناس عامة - في منهج الدعوة ، ولا في اقتراح براهين وآيات معينة عليه ، والأحياء الذين يسمعون سيستجيبيون ، أما موتى القلوب فهم موتى لا يستجيبيون ، والأمر إلى الله إن شاء أحياهم وإن شاء أبقاهم موتى حتى يرجعوا إليه يوم القيامة .

يقول صاحب الظلال تعليقاً على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَتْهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ « إن مكابدة الدعوة إلى الله موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن ، ماض في الطريق اللاحب ، ماض في الخط الواصب، مستقيم الخطا ، ثابت الأقدام ، يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين

والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء ، والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثنى ، ولا ينكص ولا يحيد ، والعاقبة هي العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق ، إن نصر الله دائماً في نهاية الطريق » .

ونعود إلى السياق فنجد أنه يبلغ الجذ الصارم إلى متنهاه ليواجه ما عساه يعتمل في نفس رسول الله ﷺ ، من الرغبة البشرية ، المشتاقة إلى هداية قومه ، المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبون من آيات لعلمهم يهتدون ، ولكن في صدد الدعوة بحسم الله في طبيعة الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها ، ودور الناس أجمعين ، فيقول عز وجل لرسوله الكريم الصابر المحتسب .

تلك سنتنا - يا محمد - فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم ، وكنت ترغب في إتيانهم بآية ، إذن فإن استطعت فابتغ لك نفقاً في الأرض أو سلباً في السماء ، فأتهم بآية! إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية ، فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى : إما بتكوين فطرتهم من الأصل على ألا تعرف سوى الهدى - كالملائكة - وإما بتوجيه قلوبهم ، وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه ، وإما بإظهار خارقة تلوى أعناقهم جميعاً ، وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها . ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية ، وتلقى الجزاء العادل في نهاية المطاف . فاعلم ذلك ولا تكن ممن يجهلون .

ما ترشدنا إليه الآيات تريباً :

١ - الكافرون نفوسهم غير مستعدة للإيمان ، فلو عادوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد القيامة فلن يؤمنوا .

٢ - في يوم القيامة لا يستطيع أحد إنكار الحق ، وإذا حاول الإنكار ؛ شهدت أعضاؤه بالحق من غير إرادته .

٣ - الكافرون لم يكذبوا الرسول ﷺ ؛ لأنه كان معروفاً بينهم بالصادق الأمين ، وإنها كذبوا بها جاء به ، لما روى سفيان الثوري عن علي قال : قال أبو جهل للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ تَجَحَّدُونَ ﴾ [رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين] .

٤ - الساعة لا تأتي إلا بغتة ، ولا ينافي ذلك ظهور علاماتها ، لأن الزمن ما بين العلامة والعلامة لا يعرف مقداره .

٥ - الصبر طريق النصر وعاقبته ، والابتلاء سنة الله في الدعوات ، وما على الدعاة إلى الله سوى المضى قدماً بالدعوة برغم كيد أعدائها حتى يأتي النصر .

معاني الكلمات :

أمم أمثالكم : أمم تشبهكم في خلق الله لها .
 ما فرطنا : ما أغفلنا وما تركنا . أرأيتمكم :
 أخبروني عن عجيب أمركم . البساء :
 والضراء : البؤس والفقر . يتضرعون :
 يتذللون ويتخشعون . جاءهم بأسنا :
 أتاهم عذابنا . أخذناهم بغتة : أنزلنا بهم
 العذاب فجأة . مبلسون : مكتسبون أو
 آيسون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية ؟

١ - أن نعرف قيمة الإيمان بالله ورسوله
 ولقائه والفرق بين المؤمن والكافر في
 الاستجابة لله .

٢ - أن نعرف طبيعة طريق الدعوة إلى
 الله .



٣ - أن نعرف قيمة التضرع إلى الله ، والتذلل له في رفع البلاء .

المحتوى التربوي :

تحدث الآيات عن صنفين من الناس يواجهون الحق الذي جاء به الرسول ﷺ من عند الله : فريق حى ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية ، عاملة ، مفتوحة ، وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقى معها إلى الحد الذى يكفى أن تسمعه فتستجيب له ، وفريق ميت ، معطل الفطرة ، لا يسمع ولا يستقبل ، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب ليس الذى ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله - فدليله كامن فيه ، ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيه مصداقه . فاستجابت إليه حتماً - إنما الذى ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول ، ولا مجال معهم للبرهان ، إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم ، وإن شاء لم يعيئهم في هذه الحياة الدنيا ، وبقوا أمواتاً بالحياة حتى يرجعوا إليه في الآخرة .

ومن خطاب رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة ، ينتقل السياق إلى حكاية ما يطلبه المشركون من إنزال خارقة ، وإلى بيان ما في هذا الطلب من الجهالة بسنة الله ، ومن سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الاقتراح الذى في أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليه ! ويعرض جانباً من دقة التدبير

الإلهى وإحاطته بالأحياء جميعاً ؛ يوحى بحكمة السنة الشاملة للأحياء جميعاً . وينتهى بتقرير ما وراء الهدى والضلال من أسرار وسنن تجرى بها مشيئة الله طليقة .

يقول صاحب الظلال : « لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التى صاحبت الرسائل السابقة ، ولا يفتنون إلى سنة الله فى أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجئ الخارقة ، وإهلاكهم فى الدنيا ، ولا يدركون حكمة الله فى عدم مجيئهم بهذه الخارقة ، وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها - كما وقع من الأقوام قبلهم - فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن ، فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة . ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى إمهالهم ، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم ، الذى لا يعلمون جرائره ! » .

ويقرر الله - عز وجل - فى الآيات التالية ما وراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسنته ، وما يدلان عليه من فطرة الناس فى حالات الهدى وحالات الضلال ، وهو إعادة لتقرير الحقيقة التى مضت فى هذه الجولة عن استجابة الذين يسمعون ، وموت الذين لا يستجيبون ، وراء ذلك كله مشيئة الله التى قضت أن يكون الإنسان على هذا الاستعداد المزودج للهدى والضلال ، عن اختيار وحكمة ، لا عن قضاء وإلزام ، وكذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم بمشيئته تلك ، التى تعين من يجاهد ، وتضل من يعاند ، ولا تظلم أحداً من العباد .

يقول صاحب الظلال : « إن طريق الدعوة إلى الله شاق ، مخوف بالمكاره ، ومع أن نصر الله للحق آت لا ريب فيه ، إلا أن هذا النصر إنما يأتى فى موعده الذى يقدره الله ، وفق علمه وحكمته ، وهو غيب لا يعلم موعده أحد - حتى ولا الرسول ، والمشقة فى هذا الطريق تنشأ من عاملين أساسيين من التكذيب والإعراض اللذين تقابل بهما الدعوة فى أول الأمر والحرب والأذى - اللذين يعلنان على الدعاة ثم من الرغبة البشرية فى نفس الداعية فى هداية الناس إلى الحق الذى تذوقه وعرف طعمه والحاسة للحق والرغبة فى استعلائه ! وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والإعراض والحرب والأذى . فكلها من دواعى مشقة الطريق ! » .

ثم يواجه السياق القرآنى فطرة المشركين ببأس الله ، بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجه ببأس الله ، فيواجه الفطرة بتصور الهول عذاب الله فى الدنيا عذاب الهلاك والدمار ، أو مجيء الساعة على غير انتظار ويسألهم الجواب بالصدق من ألسنتهم ؛ ليكون تعبيراً عن الصدق فى فطرتهم : « أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق المطابق لفطرتهم ، ولو لم تنطق به ألسنتهم « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » .

ثم تأتى المواجهة الحاسمة بنموذج من بأس الله سبحانه . نموذج من الواقع التاريخى ، نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله ، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له ، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة ، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه ؛ فإذا نسوا ما ذكروا به ، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له ، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة ، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذى لا يرجى معه صلاح ، وكانت حياتهم قد فسدت الفساد

الذى لا تصلح معه للبقاء . فحققت عليهم كلمة الله ، ونزل بساحتهم الدمار الذى لا تنجو منه ديار ، وفى هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر فى أمم شتى ، أمم جاءتهم رسلهم ، فكذبوا . فأخذهم الله بالبأساء والضراء . فى أموالمهم وفى أنفسهم فى أحوالمهم وأوضاعهم . البأساء والضراء ، التى لا تبلغ أن تكون « عذاب الله » الذى تحدثت عنه الآيات التالية وهو عذاب التدمير والاستئصال .

ويقول صاحب الظلال : « لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم ، وينقبوا فى ضائرهم وفى واقعهم ، لعلمهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله ، ويتذللون له ، ويتزولون عن عنادهم واستكبارهم ، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصه ، فيرفع الله عنهم البلاء ، ويفتح لهم أبواب الرحمة ، ولكنهم لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوا ، لم يلجؤوا إلى الله ، ولم يرجعوا عن عنادهم ، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم ، ولم تفتح بصيرتهم ، ولم تلين قلوبهم ، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد » .

ويقول الإمام محمد أبى زهرة عن المانع من الضراعة أمران :

« أحدهما : قسوة القلوب ... والسبب فى أن القسوة والضراعة نقيضان لا يجتمعان أن القسوة غلظ فى النفوس والطباع ، وإن بعض النفوس لتقسو حتى تكون كالحجارة أو أشد قسوة.... والضراعة رقة فى القلب ورأفة فى النفس ، وإحساس بآلام الغير وآلام النفس فلا يكون القاسى ضارعا ولو كان جباناً ؛ إذ الضراعة علو مع رأفة ورحمة وطمأنينة والقسوة غلظة ، وقد يكون الجبان غليظاً ؛ بل فى أكثر الأحوال هو كذلك .

الأمر الثانى : الذى يمنع الضراعة - تزوين الشيطان العمل للنفس ... والشيطان قد يراد به هنا النفس الأمارة بالسوء التى تزوين السوء فتجعله كالحسن وما هو بحسن ... » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - الإيمان بالله ورسوله ولقائه حياة والكفر بذلك موت ، فالمؤمن حى والكافر ميت .
- ٢ - طريق الدعوة إلى الله شاق ، مخوف بالمكارة ، ونصر الله للحق آت لا ريب فيه .
- ٣ - خلق الإنسان فيه الاستعداد المزدوج للهدى والضلال ، عن اختيار وحكمة ، لا عن قضاء وإلزام ، ليتحقق الابتلاء ، وينعقد الاختبار ، ليستوفى الإنسان الجزاء بما كسبت يده ، ولا يظلم ربك أحداً .
- ٤ - الهداية والضلال بمشيئة الله تعالى فمن شاء هداه ، ومن شاء أضله ، فمن أراد الهداية فليطلبها من الله عز وجل بصدق ، ومن رغب عنها فلن ينالها .
- ٥ - إنما يكون الابتلاء بالسراء والضراء ليعود الإنسان إلى ربه يتضرع إليه ، ويتذلل له ، ويدعو الله بقلب مخلص ، فيرفع الله البلاء ويفتح أبواب رحمته .

معاني الكلمات :

دابر القوم : آخرهم . أرايتم : أخبروني .
 نصرف الآيات : نكررها على طرق مختلفة .
 هم يصدفون : يعرضون عنها ويعدلون .
 بغتة : فجأة أو ليلاً . جهرة : معاينة أو
 نهاراً . خزائن الله : مرزوقاته أو مقدراته .
 بالغداة والعشي : أول النهار وآخره أى
 دوماً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نقف ونتدبر مصير الأمم التي
 كذبت بالرسول، ونأخذ منها العبرة والعظة .
- ٢ - أن نوقن أن بأس الله لا يرد عن
 القوم الظالمين ، فلا راد لقضاء الله رب
 العالمين .



٣ - أن ندرك سنة الله في نصره الحق وأهله ، ونعمل بهذه السنن إذا أردنا التمكين .

المحتوى التربوي :

يستأنف السياق تصوير مصير الأمم التي كذبت بالرسول ، والتي يُقص الله من أنبائها هنا،
 فإنهم لما نسوا ما ذكروا به ، وعلم الله - سبحانه - أنهم مهلكون ، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم
 يتضرعوا ، فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا
 بِمَا أُوتُوا ﴾ وعمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة ؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها - بلا شكر
 ولا ذكر - وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه ؛ وانحصرت اهتماماتهم
 في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات ، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة
 المستغرقين في اللهو والمتاع ، وتبع ذلك فساد النظم ، بعد فساد القلوب والأخلاق ؛ عندئذ جاء
 موعد السنة التي لا تتبدل ، فكان أخذهم على غرة ؛ وهم في سهوة وسكرة ، فإذا هم حاثرون
 منقطعوا الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أى اتجاه ، وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى
 آخر واحد منهم .

يقول صاحب الظلال : ﴿وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تعقب على استئصال الظالمين (المشركين) بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين ، وهل يحمد الله على نعمة ، أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين ، أو على رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير ؟

بعد ذلك يوقف السياق القرآني المشركين بالله ، أمام بأس الله ، في ذوات أنفسهم ، في أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ، وهم عاجزون عن رده ، وهم لا يجدون كذلك إلهاً غير الله ، يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم ، وقبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقيع جديد ، ليس على الله ببعيد ، يريهم فيه مصارعهم - وهم الظالمون : أى المشركون - وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم ؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون .

وبعد عرض هذه المشاهد التي تحمل الإنذار إلى أعماق السرائر .. يبين وظيفة الرسل ، الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق ، وإن هم إلا مبلغين ، ومبشرين ومنذرين ، ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس ما يكون ، وفق ما يتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير .

وتمضى الآيات في مواجهة المشركين بحقيقة الرسالة ، وطبيعة الرسول ، ويقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها ، ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها ، فالرسول الذى يقدمها للناس بشر ، لا يملك خزائن الله ، ولا يعلم الغيب ، ولا يقول لهم إنى ملك ، وهو لا يتلقى إلا من ربه ، ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند الله ، وعليه أن يلزمهم ، وأن يهش لهم ، وأن يبلغهم ما كتبه الله لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة .

يقول صاحب الأساس : تعليقا على قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ؛ أقول : لقد أكرم الله رسوله ﷺ بأن أطلعه على بعض الغيوب ، وقد يكرم الله - عز وجل - مسلماً بأن يلهمه حقاً ، أو يجري على لسانه باستجابة دعاء فيسخر لهم ما يسخر ، ولكن ذلك ليس هو الأساس الذى يبنى عليه المسلم موقفه .

إن كثيرين من مسلمي عصرنا بسبب من رؤية كرامة لولى ، أو بسبب من إلهام حق لصالح يتابعون صاحب ذلك فى كل شىء ، وينسون تكليف الله لهم فى القيام بأمره ونصرة شريعته ، ووجوب التعاون مع المسلمين على الخير ، ووجوب كون المسلمين صفاء واحداً .

إن هذه الآية تصحح مفاهيم خاطئة كثيرة فى أمر النبوة وفى أمر الدخول فى الإسلام ، وفى أمر المتابعة عليه ، فليس رسول الله ملكاً ومن ثم يتابع ، وليس رسول الله ﷺ عالماً بالغيب ، وقد يعطيه الله ويعطى من تابعه ، وقد يكرمه الله بشىء من علم الغيب . ثم هو أكرم على الله من ملائكته ولكن صفته هى أنه رسول الله ﷺ .

ونعود مرة أخرى للسياق فيما أمر الله - سبحانه وتعالى - رسوله ﷺ أن يصبر نفسه مع فقراء المسلمين والضعفاء منهم ، والعبيد فلا يقوم حتى يقوموا ، وهو محمد بن عبد الله وهو بعد ذلك - رسول الله ﷺ وخير خلق الله ، وأعظم من شرفت بهم الحياة ، ويعاود السياق تصحيح المفاهيم فيجعل لهم مكانة عالية دونها مكانة سادة قريش الذين أبوا الإسلام ، ويحذر رسول الله ﷺ صاحبه أبا بكر أن يكون قد أغضب هؤلاء لما عاتبهم في أمر أبي سفيان فيكون قد أغضب الله - فيذهب أبو بكر ﷺ يترضى الأعباء ليرضى الله : « يا أخوتاه أغضبتكم » ؟ فيقولون : « لا يا أخى ، يغفر الله لك » .

ولقد أراد الله عز وجل أن يرفع البشرية من هذا السفح الهابط الذى كانوا فيه فى جاهليتهم عندما قال الملأ من قريش : « يا محمد ، رضيت هؤلاء من قومك ؟ هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ؟ نحن نكون تبعاً هؤلاء ؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، جاء الرد الحاسم من الله عز وجل ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ .

وقضى الله سبحانه فى هذه الدعوى بقضائه الفصل ورد دعواهم من أساسها وبقي فقراء الجيوب أغنياء القلوب فى مجلس رسول الله ﷺ وبقي ضعفاء الجاه الأقوياء بالله فى مكانهم الذى يؤهلهم له إيمانهم ؛ والذى يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه ، واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذى قرره الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » ، وقال قتادة : بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً فقط إلا عند سكرتهم ، وغرتهم ، ونعمتهم ؛ فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون .

٢ - سنة الله فى تدمير الباطل أن يقوم فى الأرض (حق) يتمثل فى (أمة) ، ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، فلا يقعدن أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجرى سنة الله بلا عمل منهم ولا كد ؛ فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق ولا يكونون أهله ، وهم كسالى قاعدون .

٣ - المؤمنون المصدقون هم الذى ينتفعون بالقرآن وإنذاراته ، أما الكافرون المعرضون فلن يتأثروا بشيء منه .

٤ - تحذير الله - تعالى - للرسول ﷺ من طرد ضعفاء المؤمنين وفقرائهم من مجلسه فيه تكريم للمؤمنين وإعلان لمبدأ المساواة الإسلامية : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

معاني الكلمات :

فتنا : ابتلينا . كتب ربكم : قضى وأوجب .
بجهالة : بسفاهة . يقص الحق : يبينه
ويوضحه . خير الفاضلين : أفضل من
يحكم . كتاب مبين : اللوح المحفوظ .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - بيان مراتب التفاضل بين البشر
عند الله .

٢ - أن نعتقد أن رحمة الله غلبت غضبه
- عز وجل - فلا نياس من تجاوزه عن
سيئات المذنبين .

٣ - أن نعرف فضل الشكر وأهميته ،
وأثره على الشاكرين .

٤ - بيان مظاهر القدرة والعلم



والحكمة لله تعالى .

المحتوى التربوي :

بعد أن قررت الآيات أن فقراء الجيوب أغنياء القلوب أحق بالرعاية والاهتمام والجلوس معهم من ضعاف الإيمان، وأن ضعاف الجاه الأقوياء ظلوا في مكانهم الذي يؤهلهم له إيمانهم؛ والذي يستحقونه بدعائهم لله لا يتغنون إلا وجهه ، عندئذ نفر المستكبرون المستكفون يقولون : كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء ؟ إنه لو كان ما جاء به محمد خيراً ماسبقونا إليه ؛ ولهدانا الله به قبل أن يهديهم ! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمنُّ الله عليهم من بيننا ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه .

وكانت هذه هي الفتنة التي قدرها الله لهؤلاء المتعاليين بالمال والنسب ؛ والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين ؛ وطبيعة الدنيا الجديدة التي يطلع بها على البشرية . مشرقة الآفاق ، مصعدة هذه البشرية إلى القمة السامقة . ويقرر الله - سبحانه - بعد هذه الفتنة أن الشاكرين هم المستحقون لأنعام الله بكل خير ، وأما الكافرون فلا يعطون ولا يزدادون لكفرهم النعم وعدم شكرهم لها .

ويمضي السياق يأمر رسول الله ﷺ وهو رسول الله أن يبدأ أولئك الذين أسبغ عليهم فضل السبق بالإسلام ؛ والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف ! أن يبدأهم بالسلام ، وأن

يشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة ؛ متمثلاً في مغفرته لمن عمل منهم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح .

يقول صاحب الأساس : « بمناسبة قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ينقل ابن كثير ما يلي :

- روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق ، كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي » أخرجاه في الصحيحين .

- روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق ، أخرج كتاباً من تحت العرش : إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين ، فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً ، مكتوب بين أعينهم عتقاء الله » .

فما أعظم رحمة الله وما أقبح من لم ينل من هذه الرحمة يوم القيامة ! وما أعقل من عمل للوصول إلى استحقاق رحمة الله الكاملة بسلوك طريق ذلك ، والتحقق بالصفات التي يعطي الله أصحابها رحمته .

ويقول صاحب الظلال : « يأمر الله رسوله ﷺ أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه ، وحتى تبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله ، متى تابوا من بعد وأصلحوا - إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب ؛ فما يذنب الإنسان إلا من جهالة ؛ وعلى ذلك يكون النص شاملاً لكل سوء يعمل به صاحبه ؛ متى تاب من بعده وأصلح ، ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التي تجعل التوبة من الذنب - أيا كان - والإصلاح بعده ، مستوجة للمغفرة بما كتبه الله على نفسه من الرحمة » .

ويختم السياق هذه الجولة التي قدمت طبيعة الرسالة والرسول في هذه النصاعة الواضحة بأن منهج الإسلام لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره ، حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب ، إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين .

ويفاصل النبي ﷺ قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم ويقينه ممن هداه، ويأمره ربه - عز وجل - أن يواجه المشركين بأنه منهي من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أنداداً لله ، وذلك أنه منهي عن اتباع أهوائهم ؛ وبيقين الواثق يعلن أنه على بينة من ربه ، فيعلن لهم حقيقة الرسالة ويفرق فرقاً كاملاً بينها وبين حقيقة الألوهية ؛ ويأمره ربه أن يجهر بأنه لا يملك هذا الذي يستعجلونه ؛ فالذي يملكه هو الله وحده ؛ وهو ليس إلهاً ، إنها هو رسول .

ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله ، ومترك لمشئته الله ، ويخبرهم أن الله أعلم بالظالمين ، فهو يمهلهم عن علم ، ويملي لهم عن حكمة ، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيهم إلى ما يقتضون ، ثم ينزل بهم العذاب الأليم .

وبمناسبة علم الله - سبحانه - بالظالمين ؛ واستطرادًا في بيان حقيقة الألوهية ، يحل هذه الحقيقة في مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة ، مجال الغيب المكنون ، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شيء ، ويرسم صورة فريدة لهذا العلم ، ويرسل سهاماً بعيدة المدى تشير إلى آماده وآفاقه من بعيد .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية ، يقول صاحب الظلال - رحمه الله : « إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط ؛ الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ، ولا في طباق الجو ، من حى وميت وبأس ورطب » إنها جولة تدير الرؤوس ، وتذهل العقول ، جولة في آماذ الزمان وآفاق المكان ، وأغوار من المنظور والمحجوب - والمعلوم والمجهول .. جولة بعيدة موعلة مترامية الأطراف ، يعيا بتصور آماذها الخيال . »

وهذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم تكفى وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم ، كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع في التعبير ذاته ، فنرى آفاقاً من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر ، على المستوى السامق : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ ، آماذ وآفاق وأغوار في « المجهول » المطلق في الزمان والمكان ، وفي الماضي والحاضر والمستقبل ، وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - ليست العبرة في الإسلام بالحسب ولا بالنسب ، ولا بالمال ، ولا بالجاه ، والسلطان ، وإنما بالإيمان والعمل الصالح .

٢ - الشاكرون مستوجبون لزيادة النعم ، والكافرون مستوجبون لنقصانها وذهابها .

٣ - الله عز وجل يعفو عمن اقترف السيئات جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من مضار تائباً راجعاً إلى الله ، نادماً على ما فعل .

٤ - يقول النسفى بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ وعندك أيها الإنسان مفاتيح الغيب فمن آمن بغيبه أسبل الله السر على عييه .

٥ - استأثر الله تعالى بعلم الغيب عنده - عز وجل - ولم يطلع عليه أحداً ولا الرسول ﷺ فينبغى ألا نجهد أنفسنا في معرفته عن طريق إنس ولا جان ولا ملك ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ .

معاني الكلمات :

جرحتهم بالنهار : ارتكبتهم من الذنوب .
 لا يفرطون : لا يقصرون . تضرعاً :
 معلنين التذلل لله . يلبسكم : يخلطكم في
 المعارك . شيعاً : فرقاً مختلفة الأهواء .
 بأس بعض : شدة بعض في القتال .
 وكيل : حفيظ . يخوضون : يأخذون في
 الاستهزاء والظعن .
 الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - بيان قدرة الله في الحياة والموت
 والبعث .

٢ - بيان أهمية تطبيق الشريعة وفق ما
 شرع الله لا وفق أهوائنا .

٣ - أن نعرف كيف نواجه المستهزين



بكتاب الله وآياته ومنهجه .

المحتوى التربوي :

ينتقل السياق من علم الله الشامل بمفاتيح الغيب ، وبما يجري في جنات الكون ، إلى مجال من مجالات هذا العلم الشامل ، في ذوات البشر ، ومجال كذلك من مجالات الهيمنة الإلهية ، بعد العلم المحيط ، فيتحدث عن الوفاة حين النعاس ، في صورة من صورها بما يعترى الحواس من غفلة ، وما يعترى الحسن من سهوة ، وهو السر الذي لا يعلم البشر كيف يحدث ؛ وإن عرفوا ظواهره وآثاره ويردف بإحاطة علمه بكل ما تتحرك به الجوارح لأخذ أو ترك ، فالله يعلم ما كسبت من خير أو شر فالبشر جميعاً مراقبون في الحركات والسكنات ؛ لا يند عن علم الله منهم شيء ، مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار !

ثم يوقظهم في النهار من سباتهم وانقطاعهم ؛ لستم الأجال التي قضاه الله ، وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذي قدره الله ، لا مهرب لهم منه ، ولا منتهى لهم سواه ! ثم يعرض السجل الذي وعى كل ما كان منهم ، وهو العدل الدقيق الذي لا يظلم في الجزاء .

ولمسة أخرى من حقيقة الألوهية يطرحها السياق ، لمسة القوة القاهرة فوق العباد ، والرقابة الدائمة التي لا تغفل ، والقدر الجارى الذي لا يتقدم ولا يتأخر ، والمصير المحتوم الذي لا مفر

منه ولا مهرب . والحساب الأخير الذى لا ينى ولا يمهل ، وكله من الغيب الذى يلف البشر ويحيط بالناس ، فهو صاحب السلطان القاهر ؛ وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف فى قبضة هذا السلطان ؛ لا قوة لهم ولا ناصر ، هم عباد ، والقهر فوقهم ، وهم خاضعون له مقهورون .

يقول صاحب الظلال : « إنه لا بد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو لا شريعة العباد ، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، وقيموا معاملاتهم - كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم - وفق شريعة الله فى الدنيا، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله ، وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله - سبحانه - إلهاً فى الأرض ؛ ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة ، وأنهم محاسبون إذن على الكفر بالوهمية الله - أو الشرك به باتباعهم شريعته فى جانب العبادات والشعائر واتباعهم شريعة غيره فى النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، وفى المعاملات والارتباطات ، والله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ثم يحاكمهم إلى فطرتهم التى تعرف حقيقة الألوهية؛ وتلتجئ إلى إلهها الحق فى ساعة الشدة؛ ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب ؛ وكيف يخالفون عنها فى اليسر والرخاء .

إن الهول والكرب الذى ترتعد له الفرائص ليس مؤجلاً دائماً إلى يوم الحشر والحساب ، فهم يصادفون الهول فى ظلمات البر والبحر ، فلا يتوجهون عند الكرب إلا لله ؛ ولا ينجيهم من الكرب إلا الله ، ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء .

وهنا يواجههم ببأس الله الذى قد يأخذهم بعد النجاة ! فما هى مرة وتنتهى ، ثم يفلتون من القبضة كما يتصورون .

ولكن يضيف إلى ألوان العذاب الداخلة فى قدرة الله ؛ والتى قد يأخذ العباد بها متى شاء ؛ لوناً آخر بطيئاً طويلاً؛ لا ينهى أمرهم كله فى لحظة ؛ ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار - وهى صورة من العذاب المقيم الطويل المديد ؛ الذى يذوقونه بأيديهم ، ويجرعونه لأنفسهم ؛ إذ يجعلهم شيعاً وأحزاباً ، متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض ، ولا يفاصل بعضها بعضاً ، فهى أبداً فى جدال وصراع ، وفى بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك .

قال المهايمى : « قل للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر : إنما أشركتم لأنكم من الشدائد ، لكن لا وجه للأمان منها ؛ لاستمرار منشأ الخوف ، وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها .. » .

ثم يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يفاصل قومه فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل ؛ لأنهم كذبوا بما جاءهم به - وهو الحق - ومن ثم الفصل ما بينه وبين قومه ، وأمر أن يتركهم لمصيرهم الذى لا بد آت ، وأمر أن يُعرض عنهم فلا يجالسهم متى رآهم يخوضون فى الدين ، ويتخذونه لعباً ولهواً ، ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين .

والخطاب لرسول الله ﷺ يعطيه ويعطى المؤمنين من ورائه، لثقة التي تملأ القلب بالطمأنينة. الثقة بالحق - ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب - فما هم بالحكم في هذا الأمر، إنما كلمة الفصل فيه لله سبحانه . وهو يقرر أنه الحق . وأن لا قيمة ولا وزن لتكذيب القوم !

إنها الطمأنينة الواثقة بالحق ؛ الواثقة بنهاية الباطل مهما تبجح ، الواثقة بأخذ الله للمكذبين في الأجل المرسوم ، الواثقة من أن كل نبأ إلى مستقر ؛ وكل حاضر إلى مصير ، وما أحوج أصحاب الدعوة إلى الله - في مواجهة التكذيب من قومهم ؛ والجفوة من عشيرتهم ، والغربة في أهلهم ، والأذى والشدة والتعب والأواء ، ما أحوجهم إلى هذه الطمأنينة الواثقة التي يسكبها القرآن في القلوب !

وينتقل السياق بعد الانتهاء من البلاغ ، ومواجهة التكذيب بهذه المفاصلة ، فإنه ﷺ مأمور بعد ذلك ألا يجالسهم - حتى للبلاغ والتذكير - إذا رآهم يخوضون في آيات الله بغير توقير ؛ ويتحدثون عن الدين بغير ما ينبغى للدين من الجد والمهابة ؛ ويجعلون الله موضعاً للعب واللهو ؛ بالقول أو بالفعل ، حتى لا تكون مجالسته لهم - وهم على مثل هذه الحال - موافقة ضمنية على ما هم فيه ؛ أو قلة غيرة على الدين الذي لا يغار المسلم على حرمة كما يغار عليه ، فإذا أنساه الشيطان فجلس معهم ، ثم تذكر ، قام من فوره وفارق مجلسهم .

قال السيوطي في الإكليل : « في هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين ، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه في حال نسيانه ، ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة في العبادات والتعليقات » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - النوم هو الموت الأصغر ، وفي اليقظة منه دليل على قدرة الله - سبحانه وتعالى - على بعثنا بعد موتنا للحساب والجزاء .

٢ - الله - تعالى - ملائكة يحفظون الإنسان يسجلون عمله وقوله ، ويخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت عندما يحين أجله .

٣ - لجوء الناس عند الشدائد إلى ربهم وتضرعهم إليه بالدعاء ؛ ليخلصهم مما هم فيه من مخاوف ومحن ، دليل على أن الإيمان بالله وحده فطرة في النفس البشرية .

٤ - لا منجى من الشدائد ولا منقذ من الكروب إلا الله سبحانه وتعالى .

٥ - عدم الجلوس مع المستهزئين بكلام الله أو المكذبين بالدين ، حتى يأخذوا في كلام آخر فيه جد وصدق ، ومن جلس مع هؤلاء المكذبين ناسياً . فلا يقعد بعد التذكير مع هؤلاء الظالمين .

٦ - وجوب القيام احتجاجاً من أى مجلس يُعصى فيه الله ورسوله .

معاني الكلمات :

غرثهم : خدعتهم وأطمعتهم بالباطل .

أن تبسل : تجلس في النار أو الهلاك .

تعدل كل عدل : تفتد بكل فداء .

أبسلوا : حبسوا في النار . حميم : ماء وصل إلى نهاية الحرارة . استهوت : أضلته .

الصور : البوق (القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل نفخة البعث)

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - بيان حرمة مجالسة الذين يستهزئون بالله وبآياته ، ويتخذون دينه لعباً وهواً .

٢ - أن نعرف ضوابط معاملتنا ومجالسة الظالمين .

٣ - أن نوقن بأن هدى الله هو الهدى ،



وأن شريعته هي النجاة من الانحراف والضلال والتهيه .

٤ - أن نسلم لرب العالمين في أقوالنا وأفعالنا طائعين ماجورين .

المحتوى التربوي :

يتواصل السياق ليقدر أنه ليس هنالك تبعة مشتركة بين المتقين والمشركون ، فهما أمتان مختلفتان ، وإن اتحدتا في الجنس والقوم فهذه لا وزن لها في ميزان الله ، ولا في اعتبار الإسلام . إنما المتقون أمة ، والظالمون (أى المشركون) أمة ، وليس على المتقين شيء من تبعة الظالمين وحسابهم ، ولكنهم إنما يقومون بتذكيرهم رجاء أن يتقوا مثلهم ، وينضموا إليهم ، وإلا فلا مشاركة في شيء ، إذا لم تكن مشاركة في عقيدة !

هذا دين الله وقوله ، ولمن شاء أن يقول غيره ، ولكن ليعلم أنه يخرج من دين الله كله إذ يقول ما يقول ! ويستمر السياق في تقرير هذه المفاصلة ، وفي بيان الحدود التي تكون فيها المعاملة .

يقول صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًَا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ﴾ الآية : نقف من الآية أمام عدة أمور :

أولها : أن الرسول ﷺ - وينسحب الأمر على كل مسلم - مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم لعباً وهواً ، وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل ، فالذى لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذ قاعدة حياته اعتقاداً وعبادة ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة وقانوناً ، إنما يتخذ دينه لعباً وهواً ، والمسلم مأمور بمفاصلة هؤلاء ومقاطعتهم إلا للذكرى ، فهم الظالمون - أى المشركون - والكافرون الذين أبسلوا بما كسبوا ، فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون .

ثانيها : أن الرسول ﷺ - وينسحب الأمر على كل مسلم - مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً وهواً وغرتهم الحياة الدنيا - أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتب نفوسهم بما كسبوا ، وأن يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولى ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ؛ كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهانها بما كسبت .

ثالثها : حدود مجالسة الظالمين - أى المشركين - والذين يتخذون دينهم لعباً وهواً وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير ، فليست لشىء وراء ذلك - متى سمع الخوض في آيات الله ، أو ظهر اتخاذها لعباً وهواً بالعمل بأية صورة .

ويقول صاحب الظلال : إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية في الحدود التى بينها ، أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحذور ؛ لأنه - في ظاهره - إقرار للباطل ، وشهادة ضد الحق ، وفيه تلييس على الناس ، ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله . وفي هذه الحالة يكون النهى والمفارقة .

وتمضى الآيات ويأمر الله نبيه ﷺ : قل لهم يا محمد ما هم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به ، وإسلام مقادهم هؤلاء الذين يدعونهم من دونه ، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضرراً ، فهم أعجز من النفع والضر . وكل حركة إنما تجرى بقدر من الله . فما لم يأذن به الله لا يكون ، ولا يكون إلا قدره وما جرى به قضاؤه من الأمور .

ويأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يقول لهم مستنكراً دعوة غير الله ، والاستعانة بغير الله ، والخضوع لغير الله ، وسخف هذا التصرف وهذا الاتجاه ، وسواء كان ذلك رداً على ما كان يقترحه المشركون على النبي ﷺ من مشاركتهم عبادة آلهتهم ليشاركوه عبادة ربه ! أو كان ذلك استنكاراً مبتدأ لما عليه المشركون ، وإعلاناً للمفارقة والمفاصلة فيه من جانب النبي ﷺ والمؤمنين ، فإن المؤدى في النهاية واحد ؛ وهو استنكار هذا السخف الذى يرفضه العقل البشرى ذاته متى عرض له في النور ، بعيداً عن الموروثات الراسبة ، وبعيداً كذلك عن العرف السائد في البيئة !

ويجسم هذا السخف ويعرض له في ضوء ما هدى الله المسلمين إليه من عبادته وحده ، واتخاذ وحده إلهاً ، والدينونة له وحده بلا شريك وإلا فهو ارتداد على الأعقاب ؛ ورجوع إلى الوراء ؛ بعد التقدم والارتقاء ، ويصور السياق من يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة

من العبيد ! ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيذهب ﴿ كَالَّذِي أَشْتَهَوْتَهُ الشَّيْطَانُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ ﴾ ، ولكن هناك ، من الجانب الآخر ، أصحاب له مهتدون ، يدعونهم إلى الهدى ، وينادونه : ﴿ آتَيْنَا ﴾ وهو بين هذا الاستواء وهذا الدعاء ﴿ حَيْرَانٌ ﴾ لا يدرى أين يتجه ، ولا أى الفريقين يجب !

ويأتى التقرير الحاسم ﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى ﴾ ؛ وهنا يقول صاحب الظلال : لقد ذقت البشرية من ويلات الضلال - وما تزال كلها تذوق ما هو حتمى فى تاريخ البشرية حين تنحرف عن هدى الله ، والذي يريد أن يتملى شقاء البشرية فى انحرافها عن هدى الله لا يحتاج أن ينقب ، فهو حوله فى كل أرض تراه الأعين وتلمسه الأيدي ؛ ويصرخ منه العقلاء فى كل مكان ، ومن ثم يستطرد السياق ؛ ليقدر ضرورة الاستسلام لله وحده ، وعبادته وحده ، ومخافته وتقواه .

لذا يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بأن يعلن لهم أن هدى الله هو الهدى ؛ وأنا - من ثم - أمرنا أن نسلم لرب العالمين ، وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تحيىء التكاليف التعبدية والشعورية ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ؛ وهذا الاستسلام لرب العالمين ضرورة وواجب فهو الذى إليه تحشر الخلائق ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ وهو السلطان القادر صاحب المشيئة المطلقة التى تعمل بكن فيكون ؛ قوله الحق فى هذا كله ، فأولى أن يستسلم له وحده من يشركون به ما لا ينفع ولا يضر من خلقه ، فالملك كله بما فيه له يوم ينفخ فى الصور ، فلا سلطان إلا سلطانه ولا إرادة إلا إرادته ، فأولى لمن يأبون الاستسلام فى الدنيا طائعين أن يستسلموا قبل أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ فى الصور ، وهو عالم الغيب المحجوب ، كما يعلم هذا الكون المشهود ، وهو الذى يصرف أمور الكون الذى خلقه بالحكمة والخبرة فأولى أن يستسلموا لتوجيهه وشرعه عز وجل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ - على المؤمن أن يقوم بواجبه فى عظة وتذكير من يستهزئ بالدين بما يمكنه ، ولا يشترط معه فى شيء من ذلك .

٢ - القرآن خير واعظ ومذكر ، فعلى الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر أن يسلكوا طريقته الحكيمة فى التذكير والموعظة الحسنة مستشهدين بآياته الكريمة .

٣ - لا هدى إلا هدى الله ، والإعراض عنه ضلال وتيه وانحراف ، فلا بد أن نسلم لرب العالمين . وإلا فهو ارتداد على الأعقاب وشقوة للعالمين .

٤ - لا سلطان إلا سلطان الله ، ولا إرادة إلا إرادته ، فأولى بنا أن نستسلم لله رب العالمين فى الدنيا ، طائعين مأجورين قبل أن نستسلم له فى الآخرة مُرغمين مأزورين .

معاني الكلمات :

- آزر : لقب والد إبراهيم أو اسم عمه .
 ملكوت : ملك ، أو آيات .
 جنّ عليه الليل : ستره بظلامه .
 أفل : غاب وغرب تحت الأفق .
 بازغاً : طالعاً من الأفق منتشر الضوء .
 فطر السموات : أوجدها وأنشأها .
 حنيفاً : مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق .
 حاجه قومه : خاصموه في التوحيد ،
 وجادلوه .
 الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن تدبر العبر والعظات من قصة
 الخليل إبراهيم عليه السلام .

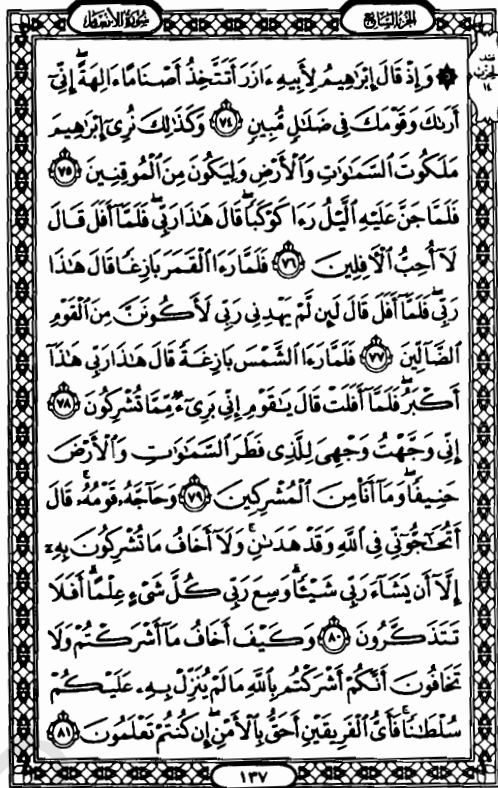
٢ - أن نحسن استخدام وسائل الإقناع بالأدلة المادية في مجادلة الخصوم .

٣ - أن نتمسك بالحق ولا نجامل بالميل إلى الباطل مهما كان أنصاره أقوياء .

المحتوى التربوي :

تطلعنا هذه الآيات على الرحلة الشائقة مع فطرة إبراهيم عليه السلام الصادقة رحلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الواعي ! الإيمان الذي يقوم على التكليف بالفرائض والشرائع والذي لا يكل الله - سبحانه - جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها . فيبينه لهم في رسالات الرسل ، ويجعل الرسالة - لا الفطرة ولا العقل البشري هي حجته عليهم ، وهي مناط الحساب والجزاء ، عدلاً منه ورحمة ، وخبرة - بحقيقة الإنسان وعلماً .

وترسم الآيات صورة لنفس إبراهيم ، وقد ساورها الشك - بل الإنكار الجازم - لما يعبد أبوه وقومه من الأصنام وقد باتت قضية العقيدة هي التي تشغل باله ، وتزحم عالمه . ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم ، فلما أن يش من أن يكون إلهه الحق - الذي يجده في فطرته في صورة غير مدركة ولا واعية صنماً من تلك الأصنام فلعله رجا أن يجده في شيء مما يتوجه إليه قومه بالعبادة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب - من الأصنام - إلى أن يكون رباً ! ولكن لا ! إنه يكذب ظنه : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾



إنه يغيب ، يغيب عن الخلائق . فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها ، إذا كان الرب يغيب ؟
لا ، إنه ليس رباً ، فالرب لا يغيب !

والصلة بين الفطرة وإلهها هي صلة الحب ؛ والأصرة هي أصرة القلب ، وفطرة إبراهيم لا تحب الآفلين ، ولا تتخذ منهم إلهاً ، إن الإله الذى تحبه الفطرة ، لا يغيب ! ويتكرر المشهد مع القمر ، وهنا يحس إبراهيم أنه فى حاجة إلى العون من ربه الحق الذى يجده فى ضميره وفطرته ، ربه الذى يحبه ، ولكنه بعد لم يجده فى إدراكه ووعيه ، ويشعر أنه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدایتة . إن لم يمد إليه يده ويكشف له عن طريقه .

وتأتى التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءاً وحرارة الشمس ، والشمس تطلع كل يوم وتغيب ، ولكنها اليوم تبدو لعينى إبراهيم ﷺ كأنها خلق جديد ، إنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى إله يطمئن به وإليه ؛ ويستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل ، ولكنها كذلك تغيب ، وهنا يقع التماس ، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق ، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل والوعى ، هنا يجد إبراهيم إلهه ولكنه لا يجده فى كوكب يلمع ، ولا فى قمر يطلع ، ولا فى شمس تسطع ، ولا يجده فيما تبصر العين ، ولا فيما يحسه الحس ، إنه يجده فى قلبه وفطرته ، وفى عقله ووعيه ، وفى الوجود كله من حوله ، إنه يجده خالقاً لكل ما تراه العيون ، ويحس الحس ، وتدركه العقول .

وعندئذ يجد فى نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه فى كل ما يعبدون من آلهة زائفة ؛ ويبرأ فى حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم ، وما هم عليه من الشرك - وهم لم يكونوا يحجدون الله البتة ، ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة - وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك

لقد انتهى إبراهيم إلى رؤية الله - سبحانه - فى ضميره وعقله وفى الوجود من حوله . وقد اطمأن قلبه واستراح باله ، وقد أحس بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه فى الطريق ، والآن يحىء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ؛ وفيما انشرح له صدره من توحيد ؛ وليخوفوه آلهتهم التى تنكر لها أن تنزل به سوءاً ، وهو يواجههم فى يقينه الجازم ؛ وفى إيمانه الراسخ وفى رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذى هداه .

ولكن إبراهيم المؤمن الذى وجد الله فى قلبه وعقله وفى الوجود كله من حوله ، يواجههم مستنكراً فى طمأنينة ويقين ﴿ قَالَ أُلْحَقُواْنِيْ فِيْ آلِهَةٍ وَقَدْ هَدَانِيْ ﴾ : أتجادلوننى فى الله ، وقد وجدته يأخذ بيدي ، ويفتح بصيرتى ، ويهدينى إليه ، ويعرفنى به ، لقد أخذ بيدي وقادنى فهو موجود ، فما جدالكم فى أمر أنا أجده فى نفسى ولا أطلب عليه الدليل . فهدایتة لى إليه هى الدليل ؟!

ويؤكد أنه لا يخاف ما يشركون ، وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف ؟
وكل قوة - غير قوة الله - هزيلة وكل سلطان - غير سلطان الله - لا يُخاف !

ولكن إبراهيم في عمق إيمانه ، واستسلام وجدانه ، لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكناً إلى مشيئة الله المطلقة وإلى علمه - عز وجل - الشامل ، فهو يكل كل شيء إلى مشيئة الله وحمايته ورعايته ؛ ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئاً ، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته ، ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاء الله ، ووسعه علمه الذي يسع كل شيء .

يقول صاحب الظلال : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ الآية :

إنه منطق المؤمن المذرك لحقائق هذا الوجود . إنه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم - وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق - وكيف يخاف آلهة عاجزة - كائنة ما كانت هذه الآلهة ، والتي تتبدى أحياناً في صورة جبارين في الأرض بطاشين ؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعفون ! - كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء ؟ وأي الفريقين أحق بالأمن ؟ الذي يؤمن به ، ويكفر بالشركاء ، أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة ، أي الفريقين أحق بالأمن ، لو كان لهم شيء من العلم والفهم ؟ ! هنا ينتزل الجواب من الملأ الأعلى ؛ ويقضى الله بحكمه في هذه القضية : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذا الإيهان شركاً في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - فطرة المؤمن تدل على وجود الله الواحد الأحد ، وإيمانه بالله يقوم على التكليف الفرائضي والشرائع الواردة إليه عن طريق الرسل والرسالات .

٢ - الرسالة هي طريق المؤمن إلى معرفة الله عز وجل ، ليست الفطرة ولا العقل البشري حجة الله - عز وجل - على خلقه ، بل نزول الرسالة هو مناط الحساب والجزاء .

٣ - لابد من معاملة الخصوم بالحجة والإقناع بالأدلة المادية الواضحة والبراهين القوية .

٤ - على الدعاة إلى الله التمسك بالحق وعدم مجاملة أحد بالميل إلى الباطل مهما كان أنصار هذا الباطل أقوياء .

٥ - الأحق بالأمن في الدنيا والآخرة هم المؤمنون الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم - أي شرك - أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

معانى الكلمات :

لم يلبسوا : لم يخلطوا . بظلم : بشرك -
بكفر . اجتبيناهم : اصطفيناهم للنبوة .

لحبط : لبطل وسقط . الحكم : الفصل بين
الناس بالحق . اقتده : اقتد ، والهاء
للسكت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نحقق شرطى الأمن فى الدنيا
والآخرة وهما الإيثار وعدم الشرك .

٢ - أن نبين فضل الأنبياء والرسل على
العالمين .

٣ - أن نعرف الحكمة من إرسال الله
لرسل وإنزال الكتب .

٤ - أن نعلم أن الشرك بالله يحبط



العمل ويهلكه .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أن الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذا الإيمان شركا فى عبادة ولا طاعة ولا اتجاه ، هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون ، ثم يكشف الله لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه ، وواضح أنهم ما كانوا يمجّدون وجود الله ؛ ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان فى الكون ، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة . فلما واجههم إبراهيم ، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه ، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة . لما واجههم بهذه الحجة التى آتاها الله له وألهمه إياها ، سقطت حجّتهم ، وعلت حجّته ، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة ، وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصفاً فى هذا بحكمته وعلمه . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

بعد ذلك يعرض السياق موكب الإيمان الجليل ، يقوده ذلك الرهط الكريم من الرسل من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - يعرض السياق هذا الموكب ممتداً موصولاً ، ولا يراعى التسلسل التاريخى فى هذا العرض ؛ لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته ، لا تسلسله التاريخى .

يقول صاحب الأساس : « ثم ذكر الله ما من به على إبراهيم من رزقه إسحاق بعد أن طعن في السن ، ومن بعده يعقوب بن إسحاق ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوض الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه وعلى دينه ؛ كإسحاق ويعقوب ، وكلا من الله عليه بالهداية الكاملة التي هي النبوة والرسالة ، مثل ما من الله على نوح عليه السلام من قبل بالهداية الكاملة ، والذرية الصالحة الباقية ، فكل من في الأرض من الخلق ذريته ، وقد جعل الله من ذريته إبراهيم عليه السلام الأنبياء والرسل الكثيرين » .

وفي الآيات ذكر لسبعة عشر نبياً رسولاً - غير نوح وإبراهيم - وإشارة إلى آخرين ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ﴾ والتعقيبات على هذا الموكب ، ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .. ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْآخَرِينَ ﴾ .. ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفاءه من الله ، وهدايته إلى الطريق المستقيم .

ويقول صاحب الظلال : « وذكر هذا الرهط على النحو ، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة ، كلمة تمهيد للتقريرات التي تليه ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض . فهدى الله للبشر يتمثل فيها جاءت به الرسل . وينحصر المستيقن منه ، والذي يجب اتباعه ، في هذا المصدر الواحد ، الذي يقرر الله - سبحانه أنه هو هدى الله ؛ وأنه هو الذي يهدى إليه من يختار من عباده ، ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله ؛ وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداة ، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقى ، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم ، أى أن يذهب ضياعاً ، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نباتاً مسموماً فتنتفخ ثم تموت ، وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط !

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآيَاتِنَا فَكَّرْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ بِهَا بَكْفِيرِينَ ﴾ ؛ وهذا هو التقرير الثانى ، فقرر في الأول مصدر الهدى ، وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل ، وقرر في الثانى أن الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم ، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة والحكم يحىء بمعنى الحكمة كما يحىء بمعنى السلطان كذلك - وكلا المعنيين محتمل في الآية ، فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالطوراة مع موسى ، والزبور مع داود ، والإنجيل مع عيسى ، وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان - وكلهم أوتى السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله .

وأن الدين الذى جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور ، فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا ، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط . كما جاء في الآيات الأخرى . وكلهم أوتى الحكمة وأوتى النبوة .. وأولئك هم الذين وكلهم الله بدينه ، يحملونه إلى الناس ،

ويقومون عليه ، ويؤمنون به ويحفظونه ، فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب : ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ فإن دين الله غنى عنهم ؛ وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين ! ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنِهِمْ آفَنَدَةٌ ۚ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، وهو التقرير الثالث ، فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان ، هم الذين هداهم الله ، وهداهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ﷺ ومن آمن به . فهذا الذي وحده هو الذي يدعو إليه ويبشر به .. قائلاً لمن يدعوهم : ﴿ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ .. ﴾ ﴿ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ لا يُنْتَص به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد ، إنه هدى الله لتذكير البشر كافة ومن ثم فلا أجر عليه يتقاضاه . وإنما أجره على الله !

وأما أخذ الأجرة على التلاوة ، ففي الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود في قصة اللديغ من قوله ﷺ : « إن حق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله ، أصبتم اقتسموا ، واضربوا إلى معكم سهما » . قال العلامة الشوكاني : حديث : « أحق ما أخذتم عليه أجرًا » عامٌ يصدق على التعليم ، وأخذ الأجرة على التلاوة لمن طلب من القارئ ذلك ، وأخذ الأجرة على الرقية ، وأخذ ما يدفع إلى القارئ من العطاء ، لأجل كونه قارئاً ، ونحو ذلك ، فيخص من هذا العموم تعليم المكلف ، ويبقى ما عداه داخلاً تحت العموم ، وبعض أفراد العام فيه أدلة خاصة تدل على جوازه كما دل العام على ذلك ، فمن تلك الأفراد ... تعليم المرأة في مقابلة مهرها ... »

قال صاحب الأساس : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ قالوا . ومعنى توكيلهم بها أنهم وقفوا للإيمان بها ، والقيام بحقوقها ، كما يوكل الرجل بالشئ ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه ، أقول : ومن الموكلين من أشار إليهم الرسول ﷺ بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » . ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - الإيمان وعدم الظلم (أى الشرك) شرطان لتحقيق الأمن في الدنيا والآخرة .
- ٢ - خير ما يعطى المرء في هذه الحياة أن يوفقه الله إلى الهداية والتزام الطريق المستقيم .
- ٣ - أنبياء الله ورسله - عليهم السلام - هم خير المهتدين وأفضل الطائعين .
- ٤ - مشروعية جدال المبطلين والمشركين لإقامة الحجة عليهم لعلهم يهتدون .
- ٥ - أحق العباد بالأمن من الخوف من آمن بالله ولم يشرك به شيئاً .
- ٦ - الشرك محبط للعمل كالردة والكفر .
- ٧ - وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ وأهل العلم والصلاح من هذه الأمة .
- ٨ - القرآن الكريم ذكرى لكل من يقرؤه أو يستمع إليه وهو شهيد حاضر القلب .

معاني الكلمات :

ما قدروا الله : ما عرفوا الله . قراطيس : أوراقا مكتوبة مفرقة . خوضهم : باطلهم . أم القرى : مكة أى أهلها . من حولها : أهل المشارق والمغارب . غمرات الموت : سكراته وشدائده . عذاب الهون : الذل والخزى . ما خولناكم : ما أعطيناكم من متاع الدنيا

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف مقتضيات الإيمان ونتخلق بمظاهر الهداية والاستقامة .
- ٢ - أن نعظم الله ونقدره ونعرفه حق المعرفة عن طريق كتبه ورسله وآياته فى كتابه المنظور وهو الكون .
- ٣ - أن نتعظ بمصارع الطغاة والظالمين



يوم القيامة ونحذر أن نكون منهم .

٤ - أن نعلم مقتضيات الشفاعة ونعمل لها قبل يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

تندد هذه الآيات بمنكرى النبوات والرسالات ، وتصمهم بأنهم لا يقدرُونَ الله قدره ، ولا يعرفون حكمة الله ورحمته وعدله .

وتقرر أن الرسالة الأخيرة إنما تجرى على سنة الرسالات قبلها؛ وأن الكتاب الأخير مصدق لما بين يديه من الكتب ؛ فلقد كان المشركون فى معرض العناد واللجاج يقولون : إن الله لم يرسل رسولاً من البشر ؛ ولم ينزل كتاباً يوحى به إلى بشر . بينما كان إلى جوارهم فى الجزيرة أهل الكتاب من اليهود ؛ ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب ، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى عليه السلام ؛ إنما هم كانوا يقولون ذلك القول فى زحمة العناد واللجاج ، ليكذبوا برسالة محمد ﷺ لذلك يوجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم : ما أنزل الله على بشر من شيء .

كما يواجههم بالكتاب الذى جاء به موسى من قبل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

ولما كانت رسالة موسى معروفة بين العرب في الجزيرة ، وكان أهل الكتاب معروفين هناك ، فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين المنكرين لأصل الرسالة والوحي ؛ بتلك الحقيقة ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ فأمر الله - عز وجل - نبيه أن يسألهم من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها قضاء للباناتهم من وراء هذا التلاعب الكريه !

كذلك واجههم بأن الله علمهم بما يقص عليهم من الحقائق والأخبار ما لم يكونوا يعلمون ؛ فكان حقاً عليهم أن يشكروا فضل الله ؛ ولا ينكروا أصله بإنكار أن الله نزل هذا العلم على رسوله وأوحى به إليه .

ولم يترك لهم أن يجيبوا على ذلك السؤال . إنما أمر رسول الله ﷺ أن يحسم القول معهم في هذا الشأن ؛ وألا يجعله مجالاً لجدل لا يثيره إلا اللجاج : ﴿ قُلِ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي خَوَاضِعِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

وتغضى الآيات تحكى شيئاً عن الكتاب الجديد ، الذي ينكر الجاحدون أن يكون الله نزله . فإذا هو حلقة مسبقة جاءت قبلها حلقات ، فليس بدعاً من الكتب التي ينزلها الله على من يشاء من رسله الكرام ؛ إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل عليهم الكتب . وهنا الكتاب الجديد الذي ينكرون تنزيله ، هو كتاب مبارك .. وصدق الله . فإنه والله المبارك .

ويقول صاحب الظلال : فأما حكمة إنزال هذا الكتاب ، فلكي ينذر به الرسول ﷺ أهل مكة - أم القرى - وما حولها ، وليس المقصود ، كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين ، أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها . فهم يقطعون هذه الآية من القرآن كله ، ليزعموا أن محمداً ﷺ ما كان يقصد في أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها ، وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذي ما كان خياله يطمح في أول الأمر إلى أوسع منه ؛ فتوسع في الجزيرة كلها ، ثم همَّ أن يتخطاها لمصادفات لم يكن في أول الأمر على علم بها ! وذلك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها ، وكذبوا ففى القرآن المكى وفي أوائل الدعوة قال الله - سبحانه - لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبا : ٢٨) ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة في شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء !

وتعرض الآيات مشهد الظالمين الذين يفترون على الله الكذب ، أو يدعون أنهم أوحى إليهم ادعاء لا حقيقة له ، أو يزعمون أنهم مستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن . مشهد هؤلاء الظالمين - الذين لا يقاس إلى ظلمهم هذا الظلم هذا ظلم - وهم في غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالعذاب ، ويطلبون أرواحهم والتأنيب يجبه وجوههم ، وقد تركوا كل شيء وراءهم وضل عنهم شركاؤهم .

والمشهد الذى ترسمه الآيات فى جزاء هؤلاء الظالمين مشهد مفزع مرعب مكروب ، الظالمون فى غمرات الموت وسكرته والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب وهم يطلبون : أرواحهم للخروج ! وهم يتابعون بالتأنيب ، جزاء استكبارهم ، وجزاء الكذب على الله .

ثم فى النهاية ، ذلك التوبيخ والتأنيب من الله تعالى ، الذى كذبوا عليه ، وهامهم أولاء بين يديه ، يواجههم فى موقف الكربة والضيق : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقد ند عنكم كل شئ ، وتفرق عنكم كل أحد ؛ وما عدتم تقدرون على شئ مما ملككم الله إياه ، وتركتكم كل شئ من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شئ منه ، ولا تقدرون منه على قليل أو كثير ! ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ فأين ذهب الشركاء والشفعاء : تقطع كل شئ كل ما كان موصولاً ، كل سبب وكل جبل وغاب عنكم كل ما كنتم تدعونه من شتى الدعاوى ، ومنها أولئك الشركاء ، وما لهم من شفاعاة عند الله أو تأثير فى عالم الأسباب .

وهكذا عرض الله علينا ما يناله هؤلاء الظالمون من تقريع وتوبيخ ساعة موتهم ويوم بعثهم ، وما بعد ذلك من العذاب أشد ؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان ، ولم يعظموه حق التعظيم ، ولم يعرفوه حق المعرفة ، بحيث يؤمنون به ، وبصفاته التى تقتضى إيماناً باليوم الآخر ، وإيماناً بالرسول ، وإيماناً بالوحى ، وبُعداً عن الكذب عليه أو تكذيب رسله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - من مقتضيات الإيمان بالله توحيده وخوفه وحده ، وأن من منن الله على من وحده أن يهديه ، وأن محمداً ﷺ مظهر من مظاهر استمرار التوحيد والهداية .

٢ - من تعظيم الله وكمال معرفته الإيمان بأنه ينزل وحياً ويرسل رسلاً ، وأن محمداً ﷺ هو الذى يعظم الله حق التعظيم ويعرفه حق المعرفة .

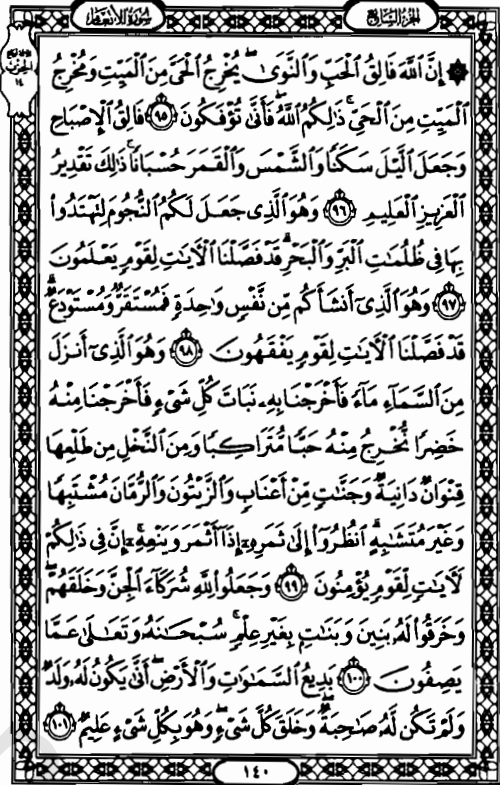
٣ - من لم يؤمن بالقرآن ، أو ادعى على الله ما لم يتصف به ، أو ادعى أن الله أنزل عليه ولم ينزل أظلم الخلق وأن هؤلاء الظالمين سيرون مغبة ظلمهم توبيخاً وتقريعاً ، يوم يموتون ، ويوم يبعثون .

٤ - فى يوم القيامة تنقطع العلاقات ، ولا ينفع الإنسان إلا ما قدم من عمل صالح فى هذه الدنيا .

٥ - انعدام الشفعاء يوم القيامة إلا ما قضت السنة الصحيحة من شفاعاة النبي ﷺ ، والعلماء والشهداء بشرط هى : أن يأذن الله للشافع أن يشفع ، وأن يرضى عن المشفوع له .

معاني الكلمات :

فالق الحب : شاقه عن النبات ، أو خالقه
فأنى تؤفكون : فكيف تُصرفون عن عبادته .
فالق الإصباح : شاق ظلمته عن بياض
النهار . حسبانا : وسيلة لحساب السنين
والأيام . مستقر : فى الأصلاب . مستودع :
فى الأرحام . حبا متراكبا : متراكما كسنايل
الحنطة . طلعها : هو أول ما يخرج من ثمر
النخل . قنوان : جمع قنو وهو عنقود البلح .
دانية : قريبة أو متدلية .
وينعه : حال نفضه وإدراكه .
خرقوا له : اختلقوا وافتروا له - سبحانه .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتدبر فى خلق الله ، ونتأمل فى مشاهد الكون من حولنا ، فإن ذلك يزيد الإيمان بالله .
- ٢ - أن نعرف قيمة العقل فى إدراك العقيدة الصحيحة .
- ٣ - أن نوقن أن الله - عز وجل - منزّه عن الشريك والولد والشبيه .
- ٤ - أن نحرر التوحيد لله - عز وجل - ونقدسه وننزّهه عن كل نقص .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات الرائعة الباهرة يأتى الحديث عن المعجزة التى لا يدرى سرها أحد ؛ فضلاً على أن يملك صنعها أحد ! معجزة الحياة - نشأة وحركة - وفى كل لحظة تتفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية وتتفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة والحياة الكامنة فى الحبة والنواة فى النبتة والشجرة ، سر مكنون ، لا يعلم حقيقته إلا الله ، ولا يعلم مصدره إلا الله .

ومنذ البدء أخرج الله الحى من الميت فقد كان هذا الكون ولم يكن هناك حياة ، ثم كانت الحياة ، أخرجها الله من الموت كيف ؟ لا ندرى ! وهى منذ ذلك الحين تخرج من الميت ؛ فتتحول الذرات الميتة فى كل لحظة - عن طريق الأحياء - إلى مواد عضوية حية تدخل فى كيان الأجسام

الحية ؛ وتحول - وأصلها ذرات ميتة إلى خلايا حية والعكس كذلك ، ففي كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة إلى أن يتحول الكائن الحى كله ذات يوم إلى ذرات ميتة !

ويعقب الله على هذه المعجزة ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ؛ ذلكم الله الذى يستحق الربوبية فيكم والرب هو المربى والموجه والسيد والحاكم ، ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله ، فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضًا ، وهو الذى جعل الليل للسكون ، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتها مقدرة دوراتها ، مقدرًا ذلك كله بقدرته التى تهيمن على كل شىء ، وبعلمه الذى يحيط بكل شىء .

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تأتى هذه الآية تنمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه ، وتنمة لعرض المشهد الكونى الهائل الرائع مرتبطًا بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم .

ويعود السياق فيلمس النفس البشرية ذاتها ، حيث تبدأ الحياة خطواتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفس هى مستودع لهذه الخلية فى صلب الرجل ، ونفس هى مستقر لها فى رحم الأنثى ، ثم تأخذ الحياة فى النمو والانتشار ، فإذا أجناس وألوان وإذا شعوب وقبائل ؛ وإذا النماذج التى لا تحصى ، والأنماط التى ما تزال تتنوع ما دامت الحياة .

ثم يمضى السياق إلى مشاهد الحياة المفتحة فى جنبات الأرض ، تراها الأعين ، وتستجليها الحواس ، وتتدبرها القلوب ، وترى فيها بدائع صنع الله ، والسياق يعرضها - كما هى فى صفحة الكون ، ويلفت إليها النظر فى شتى أطوارها ، وشتى أشكالها ؛ ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « ودور الماء الظاهر فى إنبات كل شىء دور واضح يعلمه البدائى والمتحضر ، ويعرفه الجاهل والعالم ، ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يخاطب به القرآن الناس عامة ؛ فقد شارك الماء ابتداء - بتقدير الله فى جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات ، ثم ظل الماء يشارك فى إخصاب هذه التربة ، وذلك بإسقاط (النروجين - الأزوت) من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية التى تقع فى الجو ، والنروجين الصالح فى الدوبان فى الماء يسقط مع المطر ؛ ليعيد الخصوبة إلى الأرض ، وهو السهاد الذى قلد الإنسان القوانين الكونية فى صنعه » .

وعندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ؛ وقد عرض على القلب البشرى صفحة الوجود الحافلة بدلائل وجود الله ، ووحدانيته ، وقدرته ، وتدبيره ، وقد غمر الوجدان بتلك الظلال الكونية الموحية وقد وصل الضمير بقلب الوجود النابض فى كل حى ، الناطق ببديع صنع الخلاق ، عندما يبلغ إلى هذا المقطع يعرض شرك المشركين ، فإذا هو غريب فى هذا الجو المؤمن الموصول

بمبدع الوجود ويعرض أوهام المشركين ، فإذا هي سخف تشمئز منه القلوب والعقول .
وسرعان ما يعقب عليها بالاستنكار .

وقد كان بعض مشركى العرب يعبدون الجن ، وهم لا يعرفون من هم الجن ! ولكنها أوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيد شبر انسافت في انحرافها إلى أى مدى ؛ وانفجرت المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التى بدأت صغيرة لا تكاد تلاحظ !

وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل ، دين التوحيد الذى جاء به إبراهيم عليه السلام فى هذه المنطقة ، ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد ، ولابد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيراً .

ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع الذى يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله وهم من خلقه - سبحانه .

ويواجه القرآن الكريم فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم فى هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة ، فيرد عليهم بأن الذى يبدع هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلق ؟! والخلق إنما هو امتداد الفانين وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبدعون ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر ، أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه ، فكيف يكون لله ولد - وليست له صاحبة - وهو سبحانه - فرد أحد ، ليس كمثله شئ ، فأنى يكون النسل بلا تزواج ؟ كما يواجههم بعلم الله المطلق الذى لا تقابله منهم إلا أوهام وظنون : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - قال صهيب الرومى رحمه الله لامراته وقد عاتبته فى كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب ، إن صهيياً إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه - [رواه ابن أبى حاتم] .

٢ - قال ابن كثير : قال بعض السلف : من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله - سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر .

٣ - الدين الإسلامى يحترم العقل ، ويدعو إلى استخدامه فيما يعتنق الناس من مبادئ صالحة ، وما يختارون من ألوان السلوك الرشيد .

٤ - الحث على البحث فى الطبيعة ، وخواص المادة ؛ للإفادة مما أودع الله فيها من خواص ومنافع ، ودراسة علم النبات ، والربط بينه وبين الإيمان .

٥ - إن العقيدة الصحيحة هى التى تنشأ عن الفهم والاقتناع ، لا عن مجرد التقليد والمحاكاة .

معانى الكلمات :

وكيل : رقيب . لا تدركه الأبصار : لا تحيط به - تعالى . بصائر : آيات وبراهين .
درست : قرأت وتعلمت من أهل الكتاب .
عدوا : اعتداء وظلماً . نذرهم : تركهم .
يعمّهون : يتحiron أو يعمون عن الرشد .
الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتعرف إلى الله بأسمائه وصفاته ونقدسه - عز وجل .
- ٢ - أن نوقن أن الله هو الإله الواحد المعبود بحق ، والمتصرف فى خلقه بما يريد .
- ٣ - ألا نتعرض للآخرين بالسب والتجريح حتى لا يسيثوا للدعوة ، ولا يعتدوا على ديننا - ظلماً وجهلاً .



٤ - أن نعلم أن الهداية جزاؤها خير لصاحبها ، والضلال شقوة على الكافرين .

المحتوى التربوى :

تمضى هذه الآيات وتقرر أن الله هو الذى خلق السموات والأرض وأبدعها ، وخلق كل شىء والذى هو بكل شىء عليم ، هو ربنا ، لا الجن ولا غيرهم ، فهو الله لا إله إلا هو خالق كل شىء ، وهو الذى يستحق العبادة وحده ، فاعبدوه وحده ؛ إذ هو الحفيظ والرقيب والمدير لكل من سواه ، يرزقهم ويكلوهم بالليل والنهار .

وهذا الإله العظيم لا تدركه الأبصار فى الدنيا ، ولا تحيط به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فلا أحد يستطيع أن يحيط بكنهه عظمته وجلاله على ما هو عليه ، أما هو فإنه يدرك الأبصار يراها ويحيط بها علماً على ما هى عليه ؛ لأنه خلقها ، إذ هو اللطيف الذى يعلم دقائق الأمور ومشكلاتها ، العليم بظواهر الأشياء وخفياتها .

وبعد أن قررت الآيات شرك من أشرك وردت عليهم الرد البليغ العجيب المدهش الذى فيه وصف الذات الإلهية مما يدل على أن القرآن من عند الله ؛ إذ من يستطيع أن يصف الله هذا الوصف المدهش إلا هو - جل جلاله .

ثم إنه بعد هذا الرد والبلاغ يذكر الله - عز وجل - أنه بإزالة هذا القرآن قد أعطى البشر البصائر كلها أى : البينات والحجج التى يرى بها الإنسان الأشياء على ما هى عليه ، فمن أبصر بها

وعلى ضوئها ، فمصلحة ذلك عائدة عليه ، ومن عمى عنها ولم ير بها فوبال ذلك عائد عليه ، ومحمد ﷺ مبلغ وما هو بحافظ ولا رقيب .

ثم بين - تعالى - أنه بمثل هذا البيان الرائع ، وهذا التقرير العظيم ، وهذه الحجة الواضحة ، يبين الآيات ، ويوضحها ويفسرهما ، ويكررها ، فأما الكافرون والمشركون والمنافقون ، فإثم بدلاً من أن يؤمنوا يتهمون الرسول ﷺ بأن هذا الكتاب أثر عن دراسته ومدارسته مع أهل الكتاب ، لا أثر عن نبوته والوحى إليه ، وأما العالمون فيؤمنون ، ويتضح لهم بهذا الإيهان الحق كله في كل شيء نتيجة هذا التصريف للآيات بمثل هذا البيان والكمال .

وبعد هذا البيان يأتي أمر ونهى لرسول الله ﷺ ولأمته من بعده :

أما الأمر فهو : أن عليه ﷺ أن يتبع ما أنزل الله عليه بالافتداء به واقتفاء أثره والعمل به ، وأن عليه أن يعرض عن المشركين بالعمو والصفح ، واحتمال الأذى حتى يفتح الله ثم يبين الله - تعالى - أن الله حكمة في إضلال الضالين ، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعاً ، ولو شاء لجمعهم على الهدى ، فله المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وإذا كان الأمر كذلك ، فالله وحده هو الحفيظ على أقوالهم وأفعالهم ، وهو الوكيل على أمورهم وأرزاقهم وليس محمد ﷺ بوكيل ولا بحفيظ بل هو مبلغ فقط .

ثم نهى الله رسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، حتى لا يسبوا الله - ظلماً وجهلاً ، ثم بين - تعالى - أنه كما زين لهؤلاء القوم حب أصنامهم المحماة لها والانتصار ، كذلك زين لكل أمة ضالة من الأمم الخالية عملهم الذي كانوا فيه ، والله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره ، وإليه المعاد ، وسوف يُحاسب الجميع على أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

قال أبو السعود : « إن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض ، فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التي بها يظهر في النشأة الآخرة ، فإن المعاصي سموم قاتلة ، قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة ، كما نطقت به هذه الآية الكريمة ، وكذا الطاعات ، فإنها مع كونها الأحاسن ، قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، فأعمال الكفر قد برزت لهم في هذه النشأة بصورة مزينة تستحسنها الغواة وتستحبها الطغاة ، وستظهر في النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة ، فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا ؟ .. » .

ويخبر الله - تعالى - عن المشركين والكافرين أنهم يحلفون الأيمان المؤكدة لئن جاءتهم معجزة خارقة ليصدقنّها ، وهذا يفيد أنهم يدعون أنّ الآيات ليست كافية للإيمان ، أو أنها غير موجودة ، وهذا كذب وافتراء وتعنت منهم ، ولقد أمر الله رسوله أن يعلن أن أمر الآيات إلى الله ، وأن الآيات عنده كثيرة ، وما أنزل فيه كفاية ولكنهم متعنتون ولذلك خاطب المؤمنين مبيّناً لهم أن الكافرين إذا جاءتهم الآيات التي يقترحونها فإثمهم لا يؤمنون .

يقول صاحب الظلال : بمناسبة هذا التوجيه لرسول الله ﷺ يحدد المجال الذى يتناوله اهتمام الرسول ﷺ وعمله ، كما يحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة إلى دينه فى كل أرض وفى كل جيل : إن صاحب الدعوة لا يجوز أن يعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة ، المعاندين الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموجبات الإيمان ، إنما يجب أن يفرغ قلبه ، وأن يوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا ، فهؤلاء فى حاجة إلى بناء كياناتهم كله على القاعدة التى دخلوا الدين عليها ، قاعدة العقيدة ، وفى حاجة لإنشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة . وفى حاجة إلى بناء أخلاقهم وسلوكهم ؛ وبناء مجتمعاتهم الصغيرة على هذا الأساس نفسه ، وهذا كله يحتاج إلى الجهد ، ويستحق الجهد .

فأما الواقفون على الشق الآخر ، فجزأؤهم الإهمال والإعراض بعد الدعوة والبلاغ ، وحين ينمو الحق فى ذاته فإن الله يجرى سنته ، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . إن على الحق أن يوجد ومتى وجد الحق فى صورته الصادقة الكاملة ، فإن شأن الباطل هين ، وعمره كذلك قريب !

وأخيراً يختم هذا الدرس ، الذى استعرض فيه صفحة الوجود الحافلة بالآيات والخوارق فى كل لحظة من ليل ونهار يختمه بأن هؤلاء المشركين الذى يقسمون جهد أيمانهم أن لو جاءتهم آية ليؤمنن بها ، إن هذا القلب الذى لا يؤمن بآيات الله المبثوثة فى هذا الوجود هو قلب مقلوب ؛ والله الذى يعلم حقيقة هذه القلوب يعوقهم عن الإيمان ويذرهم فى طغيانهم ؛ لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب ، وهذه هى الحقيقة التى يجهلها أكثر الناس عن طبائع القلوب .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الله - تعالى - هو الإله الواحد المعبود بحق ، وهو خالق كل شىء ، وهو المتصرف فى خلقه بما يريد .

٢ - أن الله - تعالى - يحيط علمه بكل شىء ، ولا يخفى عليه شىء ، ونحن لا نستطيع الإحاطة به - تعالى - لأنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

٣ - جزاء الهداية يعود على المهتدى ، وعقاب الضلالة يعود على الضال .

٤ - إن الذين يطلبون فى سذاجة أن يروا الله ، كالذين يطلبون فى سذاجة دليلاً مادياً على الله ! هؤلاء لا يدركون ماذا يقولون .

٥ - على الداعية أن يكون دقيقاً جداً فى طرق الخطاب وفى مواقفه وفى مناقشته ، ففى كثير من الأحيان لا يؤدى التجريح المباشر والمواجهة به إلى خير فى نقل الإنسان من حالة إلى حالة أطيب وأكرم ، ووضع الأمور فى مواضعها هو الحكمة ، والحكمة معنى زائد على العلم ، ومعرفة الحكم الشرعى .

معاني الكلمات :

حشرنا : جمعنا . قبلا : مواجهة أو جماعة .
زخرف القول : القول الباطل . لتصفى
إليه : لتميل إلى زخرف القول . ليقتربوا :
ليفعلوا الذنوب . الممترين : الشاكين في
أنهم يعلمون ذلك . كلمة ربك : قرآنه .
يخرون : يكذبون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف أن الهداية والضلال بيد الله - عز وجل - فهو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .
- ٢ - أن ندرك حكمة الله في ترك الشياطين يكيدون لعباده في كل وقت وحين .



٣ - أن نحذر التمويه والتغيير ، فإن أمضى سلاح للشياطين هو التزيين والتغيير .

المحتوى التربوي :

يستأنف السياق حديثه السابق الموصول في نهاية الجزء السابع ؛ والمتعلق بها كان يقترحه مشركو العرب على رسول الله ﷺ من الخوارق التي يريدون أن يأتي لهم بها فيصدقوه ، وما كان من حلفهم بالله حلفاً مكرراً مؤكداً أن لو جاءتهم هذه الآيات التي يطلبون إنهم ليؤمنون ! مما جعل بعض المسلمين أنفسهم يشتهون أن لو يجيئهم الله إلى ما يطلبون ! ويقترحون على رسول الله ﷺ أن يسأل ربه هذه الآيات التي يقترحها المقترحون .

ويقول محمد بن جرير الطبري في تفسير قوله - تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُوتَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ﴾ الآية : « يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ يا محمد آيس من فلاح هؤلاء المعادين برهم الأوثان والأصنام ، القائلين لك : ﴿ لَيْنَ جَاءَهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانا ، وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك ، ودلالة على نبوتك ، وأخبروهم أنك محق فيما تقول ، وأن ما جئتهم به حق من عند الله ؛ وحشرنا عليهم كل شيء فجعلناهم لك قبلا ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك - إلا أن يشاء الله لمن شاء منهم ولكن أكثرهم يجهلون بعد ذلك تحيى آيتان في سياق السورة ؛ هما من ناحية تكملة للمعاني والحقائق التي تستهدفها الفقرة

السابقة التي انتهينا من الحديث عنها ، ومن ناحية هما تمهيد للقضايا العقدية المتعلقة بالسلطان والشرعية والحاكمية .

يقول الله - تعالى - كذلك قدرنا أن يكون لكل نبي عدوهم شياطين الإنس والجن ، وقدرنا أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوه به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى ، وقدرنا أن تصفى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، ويقتروا ما يقترفونه من العداوة للرسل وللحق ؛ ومن الضلال والفساد في الأرض . كل ذلك إنما جرى بقدر الله ، وفق مشيئته ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولمضت مشيئته بغير هذا كله ؛ ولجرى قدره بغير هذا الذي كان . فليس شيء من هذا كله بالمصادفة ، وليس شيء من هذا كله كان بسلطان من البشر كذلك أو قدرة !

ويأمر الله نبيه ﷺ أن يدعهم وافتراءهم فإنه - عز وجل - من ورائهم قادر على أخذهم ، مدخر لهم جزاءهم ، ولتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء لقلب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، فهؤلاء يحصرون همهم كله في الدنيا ، وهم يرون الشياطين في هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبي ، وينالون بالأذى أتباع كل نبي ، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل فيخضعون للشياطين ، معجبين بزخرفهم الباطل ، معجبين بسلطانهم الخادع . ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والمعصية والفساد في ظل ذلك الإيحاء ، وبسبب هذا الإصغاء .

يقول صاحب الظلال : « ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً ، إنه محاط بمشيئة الله وقدره ، لا يقدر الشياطين على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه الله وينفذه ويقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد - على ضخامته - تجمع قوى الشر العالمية كلها عليه ، مقيداً مغلولاً ! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط ، ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع - كما يجب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر ؛ ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم .. كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئته الله ، وما يضررون أولياء الله بشيء إلا بها أرادته الله - في حدود الابتلاء . ومرد الأمر كله لله .

ويأتى الحديث للقضية التي تعالجها السورة - قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح ، وهى تأخذ أهميتها من ناحية تقرير المبدأ الإسلامى الأول : مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده ، ويأتى السؤال على لسان رسول الله ﷺ للاستنكار ، استنكار أن يبتغى حكماً غير الله في شأن من الشؤون على الإطلاق ، وتقرير الحاكمية لله في الأمر كله ، ونفى أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالباً حكمه في أمر الحياة كله .

ثم تفصيل لهذا الإنكار ، وللملابسات التي تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً ، إن الله لم يترك شيئاً غامضاً ؛ ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه فيما يعرض لهم من مشكلات الحياة : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ .

ولقد كانت هذه ملابسة حاضرة في مكة ، وفي الجزيرة يخاطب الله بها المشركين سواء أقر أهل الكتاب بها وجهرها - أو كتموها وجحدوها ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ . وحين يقرر السياق أن هذا الكتاب أنزله الله مفصلاً ؛ وأن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق يلتفت إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين به ، يهون عليه وعليهم شأن التكذيب والجدل الذي يجذونه من المشركين ؛ وشأن الكتبان والجحود الذي يجذونه من بعض أهل الكتاب ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ويمضى السياق في هذا الاتجاه ؛ يُقرر أن كلمة الله الفاصلة قد تمت ؛ وأنه لا مبدل لها بفعل الخلق ، بالغاً ما بلغ كيدهم : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الذي يسمع ما يقوله عباده ، ويعلم ما وراءه ، كما يعلم ما يصلح لهم ، وما يصلحهم .

ويحذر الرسول ﷺ أن يطيع الناس في شيء يشيرون به عليه من عند أنفسهم ؛ مهما بلغت كثرتهم ؛ فالجاهلية هي الجاهلية مهما كثر أتباعها الضالون ، ثم قرر أن الذي يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده ؛ لأن الله وحده هو الذي يعلم حقيقة العباد ، وهو الذي يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال .

وبعد هذا التمهيد التقريري تحيى قضية الذبائح ، فيأمر الله نبيه وأمه أن تأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وهذا الذكر يقرر الوجهة ويحدد الاتجاه ، ويعلن إيمان الناس بطاعة هذا الأمر الصادر إليهم من الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي ؛ ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء هم « شياطين » ! شياطين الإنس والجن ، وأن بعضهم يخدع بعضاً ، ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله .

٢ - أن حكمة الله وقدرته هي التي اقتضت أن يترك الشياطين من الإنس والجن يكيدون لتمحيص أوليائه وابتلائهم ؛ ليخلصون من خط أنفسهم ويبيعونها ببيعة واحدة لله ، على السراء وعلى الضراء سواء ، وفي المنشط والمكره سواء .

٣ - هوان الشياطين من الإنس والجن ، وهوان كيدهم وأذاهم ، فما يستطيلون بقوة ذاتية هم ؛ وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم ، والمؤمن الذي يعلم أن ربه هو الذي يقدر ، وهو الذي يأذن ، خليف أن يستهين بأعدائه من الشياطين ، مهما تبلغ قوتهم وسلطانهم المدعى .

٤ - من التضليل تحريم الكافرين ما أحل الله ، وتحليلهم ما حرمه ، فعلى المسلم أن يأكل مما ذكر اسم الله على ذبحه فذلك من الإيمان .

معانى الكلمات :

ذروا : تركوا . يقتربون : يفعلون من
الذنوب أيأ كانت . إنه لفسق : معصية
وخروج عن الطاعة . صغار : هوان وذل
عظيم .

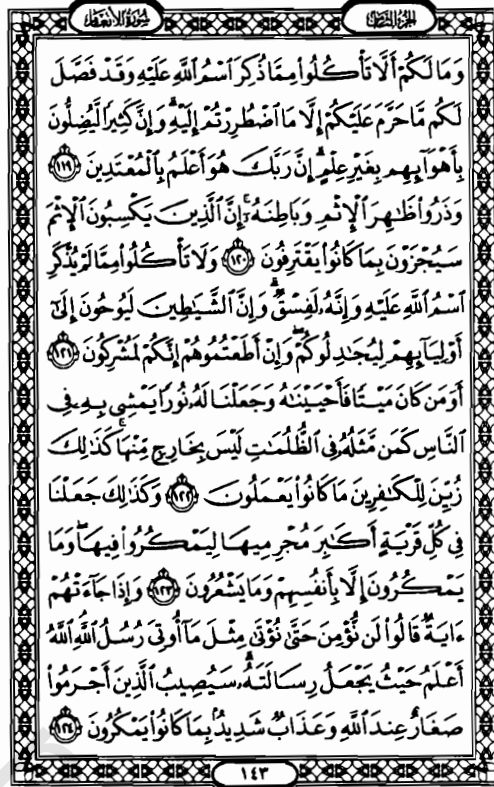
الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - بيان سماحة ويسر الإسلام فيما
شرعه الله على عباده من الحلال والحرام .

٢ - أن نعرف حكم أكل ما لم يذكر
عليه اسم الله، ومتى تكون حالة الاضطرار
والضرورة في أكل ذبائح غير المسلمين ،
وما لم يذكر عليه اسم الله .

٣ - أن نتجنب الجدل ، لأنه لا يأتي
بخير .

٤ - أن نعرف الفرق بين المؤمن والكافر .



المحتوى التربوى :

في هذه الآيات يسأل الله الذين أشركوا ما لهم في الامتناع من الأكل مما ذكر اسم الله عليه ،
وقد جعله الله لهم حلالاً ؟ وقد بين الحرام الذى لا يأكلونه إلا اضطراراً ؟ فانتهى بهذا البيان كل
قول في حله وحرمة ؛ وفي الأكل منه أو تركه ؟

ولما كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة - إذ ذاك في البيعة ، حيث كان المشركون
يمنعون من ذبائح أحلها الله ، ويحلون ذبائح حرمها الله - ويزعمون أن هذا هو شرع الله ! فإن
السياق يفصل في أمر هؤلاء المشترعين المفتريين على الله ، فيقرر أنهم إنما يشرعون بأهوائهم بغير
علم ولا اتباع ، ويضلون الناس بما يشعرونه لهم من عند أنفسهم ، ويعتدون على ألوهية الله
وحاكميته بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد .

ثم يأمرهم الله بأن يتركوا الإثم كله - ظاهره وخافيه - ومنه هذا الذى يزاولونه من إضلال
الناس بالهوى وبغير علم، وحملهم على شرائع ليست من عند الله وافتراء أنها شريعة الله !
ويحذرهم مغبة هذا الإثم الذى يقتربونه ، ثم ينهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من
الذبائح التى كانوا يذكرون عليها أسماء ألهتهم ؛ أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام ؛ أو
من الميتة التى كانوا يجادلون المسلمين في تحريمها ، يزعمون أن الله ذبحها ! فكيف يأكل المسلمون

مما ذبحوا بأيديهم ، ولا يأكلون مما ذبح الله ؟! وهو تصور من تصورات الجاهلية التي لا حد لسخفها وتهافتها في جميع الجاهليات .

ويتنقل السياق ليصور طبيعة الكفر والإيمان ؛ ويقرر عدة حقائق يعبر عنها بصورة واقعية ، ويعلق صاحب الظلال على ذلك قائلاً : « إن هذه العقيدة تنشئ في القلب حياة بعد الموت ؛ وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات . حياة يعيد بها تذوق كل شيء وتصوره ، وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة ، ونوراً يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديداً ، كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نوره الإيمان .

والكفر انقطاع عن الحياة الأزلية الأبدية ، التي لا تفتنى ولا تغيض ولا تغيب ، فهو موت وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله ، فهو موت ، والإيمان اتصال ، واستمداد واستجابة ، فهو حياة .

ويقول صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : « أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا » ؛ وكذلك كان المسلمون قبل هذا الدين قبل أن ينفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها ، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف ، كانت قلوبهم مواتاً ، وكانت أرواحهم ظلاماً ، ثم إذا قلوبهم ينفخ عليها الإيمان فتتهتز ، وإذا أرواحهم يشرف فيها النور فتضيء ، ويفيض منها النور فتمشي به بين الناس تهدي الضال ، وتلتقط الشارد ، وتطمئن الخائف ، وتحرر المستعبد ، وتكشف معالم الطريق للبشر ، وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد ، الإنسان المتحرر المستنير ، الذي خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد ! أفمن نفخ الله في روحه الحياة ، وأفاض على قلبه النور كمن حاله أنه في الظلمات ، لا مخرج له منها ؟ إنها عالمان مختلفان شتان بينهما شتان ! فما الذي يمسك بمن في الظلمات والنور حوله يفيض ؟ » .

وجعل الله في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ؛ ليتم الابتلاء ، وينفذ القدر ؛ وتحقق الحكمة ، ويمضي كل فيها هو ميسر له ، وينال كل جزاءه في نهاية المطاف ، فهي سنة جارية أن ينتدب في كل قرية - نفرًا من أكابر المجرمين فيها ، يقفون موقف العداء من دين الله ، ذلك أن دين الله يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكابر من السلطان الذي يستطيعون به على الناس ، ومن الربوبية التي يتعبدون بها الناس ، ومن الحاكمية التي يستذلون بها الرقاب ، ويرد هذا كله إلى الله وحده ، رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .

ويؤكد الله - عز وجل - أن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم ، فإله وليهم فيها ، وهو حسبهم وهو يرد على الكائدين كيدهم ، فليطمئن المؤمنون ؛ ثم يكشف السياق القرآني عن طبيعة الكبر في نفوس أعداء رسل الله ودينه والكبر الذي يمنعهم من الإسلام ؛ خشية أن يرجعوا عبداً كسائر العباد ، فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع ، ويكبر عليهم

أن يؤمنوا للنبي فيسلموا ، وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للأتباع ، وأن يشعروا لهم فيقبلوا منهم التشريع ، وأن يأمرهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع . من أجل ذلك يقولون قولتهم النكراء : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ وقد قال الوليد بن المغيرة : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سناً ، وأكثر منك مالاً ! وقال أبو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً ، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه !

ويرد الله على قولتهم المنكرة أولاً بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكونى الخطير ، ويرد عليهم ثانياً بالتهديد والتحقيق وسوء المصير . والله وحده - سبحانه - هو الذى يعلم أين يضع رسالته ، ويختار لها الذات التى تنتدب من بين ألوف الملايين ، ويقال لصاحبها : أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير . وقد جعلها - سبحانه - حيث علم ، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم ، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم حتى انتهت إلى محمد خير خلق الله وخاتم النبيين ﷺ .

الذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ، أو يطلبون أن يؤتوا ما أوتى الرسول ؛ لأنهم يتخذون ذواتهم محوراً للوجود الكونى ، والرسل الذين يختارهم الله يهبون للرسالات أنفسهم ، وينسون فيها ذواتهم ويؤتونها من غير تطلع ولا ارتقاب .

ثم التهديد بالصغار والهوان على الله ، وبالعذاب الشديد المهين : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - أن الإسلام دين يسر وسماحة ، فهو يراعى أصحاب الأعذار والضرورات ؛ فيبيح لهم عند الضرورة ما كان محرماً عليهم ، ولكن بقدر دفع الضرر فقط .

٢ - بين الله - تعالى - الحلال والحرام ، وفصله في كتابه الكريم ، فلا يجوز للإنسان - مهما كانت مكانته - أن يشرع غير ما شرعه الله ، ولا أن يتدخل فيحل ما حرمه الله ، أو يحرم ما أحله الله .

٣ - أحل الله الذبائح التى يذكر عليها اسم الله ، وحرم منها ما ذبح لغير الله ، وما ذكر اسم غير اسم الله عليها .

٤ - كثرة جدال المشركين للمؤمنين ومعادنتهم ؛ اتباعاً منهم لوساوس الشياطين التى اتخذوها أولياء من دون الله .

٥ - المؤمن الذى اهتدى بالقرآن قلبه حتى بالقرآن يرى بنور الله - تعالى - ويفرق بين الحق والباطل ، أما الكافر فهو ميت الإحساس ، مظلم الضمير ، أعمى البصيرة لا يميز بين الحق والباطل .

معاني الكلمات :

حرجاً : شديد الضيق . يصعد في السماء : يحاول صعودها فلا يستطيعه . الرجس : العذاب أو الخذلان . دار السلام : الجنة .

استكثرتم من الإنس : من دعوتهم للضلال . النار مثواكم : مأواكم ومستقركم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف سنة الله - تعالى - في الهداية والإضلال .

٢ - بيان صعوبة وشدة ما يعاني الكافر إذا عُرِض عليه الإيمان .

٣ - أن نعلم أن إرادة الله مطلقة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

٤ - أن نحذر الاغترار بالحياة الدنيا .



٥ - أن نعلم العلة من إرسال الرسل .

المحتوى التربوي :

تصور الآيات حالتى الهدى والإيمان فى داخل القلوب والنفوس ، فمن يقدر الله له الهداية - وفق سنته الجارية من هداية من يرغب فى الهدى ، ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء - ﴿يُفْتَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ ؛ فيتسع له ؛ ويستقبله فى سر ورجبة ، ويتفاعل معه ، ويطمئن إليه ، ويستروح به ويستريح له . ومن يقدر له الضلال - وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه : ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة فى قبوله .

يقول صاحب المنار بمناسبة هذه الآية : « هذا وصف لحال المستعد لهداية الإسلام بسلامة فطرته وطهارة نفسه من الخلقين الصادين عن إجابة دعوة الحق ، وهما الكبرياء والحسد وتبجليها - أى نفسه - بالهادين إلى الحق والرشاد ، وهما استقلال الفكر الصاد عن تقليد الآباء والأجداد ، وقوة الإرادة الصارفة عن اتباع الرؤساء أو مجارة الأنداد ، فمن كان كذلك كان أهلاً بإرادة الله - تعالى - وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذى هو دين الفطرة ومهذبها ، فإذا أُلقيت إليه وجد لها فى صدره انشراحاً واتساعاً بما يشعر به قلبه من السرور وداعية القبول ، وذلك أنه لا يجد مانعاً من

النظر الصحيح فيما ألقى إليه فيتأمله فتظهر له آياته ، وتتضح له دلالاته فتتوجه إليه إرادته ، ويدعن له قلبه فتتبعه جوارحه ، وهذا هو النور الذى يفيض عليه من القرآن والذى يسير فيه باتباعه له ، فهذه الآية مقابلة لآية المثل الذى ضربه الله - تعالى - فى هذا السياق للمؤمنين والكافرين فى قوله - تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ ؕ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر : ٢٢) .

ثم يحىء التعقيب الأخير فى هذا المقطع يربط قضية التشريع وهى قضية الحاكمية بالإيمان ، فهذه وتلك صراط الله المستقيم ، والخروج فى واحد منهما هو الخروج عن هذا الصراط المستقيم والاستقامة عليهما معا العقيدة والشريعة هى الاستقامة على الصراط المؤدى إلى دار الإسلام وولاية الله لعباده الذاكرين .

وقد فصل الله آياته وبينها ولكن الذين يتذكرون ولا ينسون ولا يغفلون هم الذين ينتفعون بهذا البيان وهذا التفصيل . فالقلب المؤمن قلب ذاكر لا يغفل ، وقلب منشرح مبسوط ، وقلب حى يستقبل ويستجيب ، والذين يتذكرون ، لهم دار السلام عند ربهم ، دار الطمأنينة والأمان ، مضمونة عند ربهم لا تضيع ، وهو وليهم وناصرهم وراعيهم وكافلهم ، ذلك بما كانوا يعملون .. فهو الجزاء على النجاح فى الابتلاء .

ويتواصل السياق القرآنى فى رسم مشاهدته ، فيعرض الصفحة المقابلة فى المشهد على طريقة القرآن الغالبة فى عرض « مشاهد القيامة » - يعرض شياطين الإنس والجن ، الذين قضوا الحياة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول - غروراً وخداعاً وإضللاً ؛ ويقف بعضهم بمساندة بعض عدوا لكل نبي ؛ ويوحى بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين فيما شرعه الله لهم من الحلال والحرام ، يعرضهم فى مشهد حى ، حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب .

فيسجل الله على الجن جريمة الاستكثار من الإنس ، وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأغرار الأغفال ويسخروهم لتحقيق هدف إبليس فى عالم الإنس ، وهؤلاء الأغرار المستخفون كانوا يحسبون أنه كان استمتاعاً متبادلاً ، عندئذ يحىء الحكم الفاصل بالجزاء العادل أن النار مثابة وماوى .

ويقول صاحب الظلال: بمثل هذا الذى قام بين الجن والإنس من ولاء ، وبمثل ما انتهى إليه هذا الولاء من مصير ، بمثل ذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ، نجعل بعضهم أولياء بعض ، بحكم ما بينهم من تشابه فى الطبع والحقيقة ، وبحكم ما ينتظرهم من وحدة فى المصير .

ويستأنف السياق شطر المشهد الأخير ويسألهم الله - عز وجل - سؤال التقرير والتسجيل والتأنيب والتوبيخ : ﴿ يَمَعْشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُم ؕ آيَاتِى

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٤٣٢﴾

ويتابع صاحب الظلال فيقول : وعلى أية حال فقد أدرك المسؤولون من الجن والإنس ، أن السؤال ليس على وجهه ، إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ، كما أنه للتأنيب والتوبيخ فأخذوا في الاعتراف الكامل ، وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه ، قالوا : ﴿ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ وهنا يتدخل المعقب على المشهد فيقول : ﴿ وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ وهو تعقيب لتقرير حالهم في الدنيا ، فقد غرتهم هذه الحياة وقادهم الغرور إلى الكفر ثم هاهم أولاء يشهدون على أنفسهم به ؛ حيث لا تُجدى المكابرة والإنكار ، فأى مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه في هذا المأزق ، الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع !

وفى ختام هذا المشهد المروع الشاخص يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين ؛ وإلى الناس أجمعين ؛ ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن ؛ وبإباحة هذا الحشد الحاشد إلى النار ، وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم ، تقص عليهم آيات الله ، وتنذرهم لقاء يومهم هذا ، ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه ، بأن عذاب الله لا ينال أحداً إلا بعد الإنذار وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم (أى بشرهم) إلا بعد أن ينبههم من غفلتهم ، وتقص عليهم الآيات ، وينذرهم المنذرون : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - كل شئ بإرادة الله - تعالى - ومشيته ، وهو مطلع على قلب عبده ، عالم بسر وجهه ، فإذا مال العبد إلى الهداية يسرها الله له وشرح صدره للإيمان ، وإذا انصرف العبد عن نور الله جعل قلبه شديد الضيق لا يتفد إليه نور الإيمان .

٢ - ليس للشيطان سلطان على عباد الله المؤمنين ، ولكنه يتسلط على الذين يعرضون عن الإيمان بالله ورسوله .

٣ - لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً ، فهو وحده المتصرف فى شؤون خلقه .

٤ - الله - تعالى - يولى الناس بأعمالهم ، فالؤمن ولى المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولى الكافر كذلك ، والإيمان ليس بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن ما قر فى القلب ، وصدقه العمل .

٥ - من أعان ظالماً سلطه الله على هلكته .

٦ - أرسل الله الرسل لإقامة الحجة على الناس ، وعدم إهلاكهم قبل الإرسال إليهم .

معاني الكلمات :

يستخلف : يتخذهم خلفاء . بمعجزين :
لا تستطيعون الهرب من عذاب الله .

مكانتكم : غاية تمكنكم واستطاعتكم .

ذراً : خلق . الحرت : الزرع

الأنعام : الإبل والبقر والضأن والماعز .

فذرهم : اتركهم . يفترون : يخلقون كذباً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن الله غني عن العالمين ،
فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

٢ - أن نفند تصورات الجاهلية الخاطئة
ونحذر الوقوع فيها .

٣ - أن نحرر الولاء والطاعة لله في
التشريع والعادات والتقاليد .

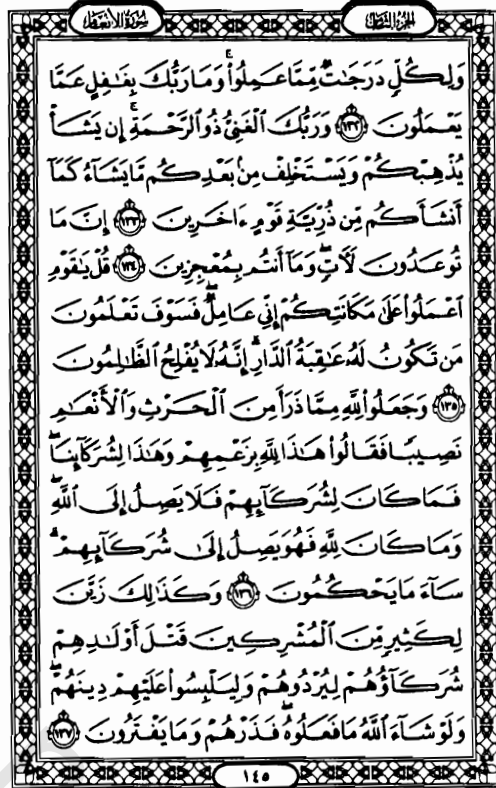
٤ - أن نعرف حرمة الابتداع في الدين وأثره السيئ على الإسلام والمسلمين .

المحتوى التربوي :

يقرر المولى - عز وجل - حقيقة مهمة في شأن الجزاء للمؤمنين وللشياطين سواء : فللمؤمنين درجات فوق درجة ، وللشياطين درجات : درجة تحت درجة ! وفق الأعمال ، والأعمال مرصودة لا يغيب منها شيء ﴿ وَمَا رُبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

على أن الله - سبحانه - إنما يرسل رسله رحمة بالعباد ، فهو غني عنهم ؛ وعن إيمانهم به وعبادتهم له ، وإذا أحسنوا فإننا يحسنون لأنفسهم في الدنيا والآخرة . كذلك تتجلى رحمته في الإبقاء على الجيل العاصي الظالم المشرك ، وهو القادر على أن يهلكه ، وينشئ جيلاً آخر يستخلفه .

يقول صاحب الظلال : فلا ينسى الناس أنهم باقون برحمة الله ؛ وأن بقاءهم مُعلق بمشيئة الله ؛ وأن ما في أيديهم من سلطان إنما خولهم الله إياه . فليس هو سلطاناً أصيلاً ؛ ولا وجوداً مختاراً ، فما لأحد في نشأته ووجوده من يد ؛ وما لأحد فيما أعطيه من السلطان من قدره ، وذهابهم واستخلاف غيرهم هين على الله ، كما أنه أنشأهم من ذرية جيل آخرين . واستخلفوا هم من بعده بقدر من الله .



وفى تأكيد لا يقبل الشك يقول المولى - عز وجل - مهدداً الكافرين : إنكم فى يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره . فلستم بمفلتين أو مستعصين ، ويوم الحشر الذى شاهدتم منه مشهداً منذ لحظة ينتظركم ؛ وإنه لآت لا ريب فيه ، ولن تفلتوا يومها ، ولن تعجزوا الله القوى المتين ؛ ويعقب هذا تهديد آخر ؛ تهديد الوائق من الحق الذى معه ؛ ومن القوة التى فى الحق ، والقوة التى وراء الحق ، والتهديد هذه المرة من الرسول ﷺ بأنه نافض يديه من أمرهم ؛ واثق بما هو عليه من الحق ، واثق من منهجه وطريقه ، واثق كذلك مما هم عليه من الضلال ، واثق من مصيرهم الذى هم إليه منتهون : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

فهذه هى القاعدة التى لا تتخلف ، إنه لا يفلح الظالمون ، الذين يتخذون من دون الله أولياء ، وليس من دون الله ولى ولا نصير ، والذين لا يتبعون هدى الله ، وليس وراءه إلا الضلال البعيد وإلا الخسران المبين .

ويتنقل السياق ليصف تصورات الجاهلية وتقاليدها فى الحرث والأنعام - أن الله هو الذى أنشأ لهم هذه الزروع والأنعام ؛ فما من أحد غير الله يرزق الناس من الأرض والسماء ، ثم يذكر بعد هذا التقرير ما يفعلونه بما رزقهم . إذ يجعلون له منه - سبحانه - جزءاً ، ويجعلون لأوثانهم وأصنامهم جزءاً (وطبيعى أن سدنة الأوثان هم الذين ينتهى إليهم هذا الجزء الأخير) ثم هم بعد ذلك يجورون على الجزء الذى جعلوه لله . على النحو الذى تقرره الآية .

وعن قتادة قال : عمد ناس من أهل الضلالة فجزأوا من حروثهم ومواشيهم جزءاً لله وجزءاً لشركائهم ، وكانوا إذا خالط شيء مما جزؤوا لله فيما جزؤوا لشركائهم خلوه ، فإذا خالط شيء مما جزؤوا لشركائهم فيما جزؤوا لله ، ردوه على شركائهم ، وكانوا إذا أصابتهم السنة (يعنى الجذب) استعانوا بما جزؤوا لله وأقروا بما جزؤوا لشركائهم . قال الله ، ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف فى أموالهم ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم وذلك ما كانوا يفعلونه من وأد البنات خشية الإملاق - أو خشية السبى والعار - ومن قتل بعض الأبناء فى النذر للآلهة كالذى روى عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده ، إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه !

وظاهر أن هذا وذاك كان يوحى به عرف الجاهلية ، العرف الذى وضعه الناس للناس ، والشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن ؛ من الكهنة والسدنة والرؤساء من الإنس ، ومن القرناء الموسوسين من الجن ، بالتعاون والمولاة فيما بينهم .

والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزيين ، وذلك ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبساً غامضاً لا يقفون منه على تصور واضح ، فأما الهلاك ، فيتمثل ابتداءً فى قتلهم لأولادهم ، ويتمثل أخيراً فى فساد الحياة الاجتماعية بحملتها ، وصيرورة الناس ما يشه شاة ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاؤوا وفق أهوائهم ومصالحهم ، حتى ليتحكمون فى أنفسهم وأولادهم

وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفراً من الخضوع ؛ لأن التصورات الملتبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها ، وتنشئ ثقلاً ساحقاً لا تقف له جماهير الناس ما لم تعتصم منه بدين واضح .

يقول صاحب الظلال : « وهذه التصورات المبهمة الغامضة ؛ وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . لا ينحصر في تلك الصور التي عرفت الجاهلية القديمة . فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً . هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً وتكلفهم أحياناً ما لا يطيقون من النفقة ، وتأكل حياتهم واهتماماتهم ، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم ، ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها ، أزياء الصباح ، وأزياء بعد الظهر ، وأزياء المساء ، الأزياء القصيرة ، والأزياء الضيقة ، والأزياء المضحكة ! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف ، إلى آخر هذا الاسترقاق المذل من الذي يصنعه ، ومن الذي يقف وراءه ؟ تقف وراء بيوت الأزياء . وتقف وراء شركات الإنتاج ! ويقف وراء المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها ! ويقف وراء اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التي ينشئونها ، ويوصلونها بنظريات وثقافات ، ويطلقونها تضغط على الناس في صورة (عرف اجتماعي) فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفي ما لم تتمثل في أنظمة حكم ، وأوضاع مجتمع ، وفي عرف غامض لا يناقشه الناس ؛ لأنه ملتبس عليهم متشابكة جذوره وفروعه !

إنه فعل الشياطين من الإنس والجن ، وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحذ جذورها ومنابعها ، وتتناول قوانينها وقواعدها : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ . ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الله - سبحانه وتعالى - غنى عن العالمين ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

٢ - ما كلفنا الله - تعالى - به من العبادات والأعمال فيه الخير والسعادة لنا في الدنيا والآخرة ، وفي طاعة الله - تعالى - الوصول إلى الكمال البشري والخير العظيم .

٣ - وأد البنات من العادات الجاهلية التي زينها الشياطين للكافرين ، وقد أبطلها الإسلام وحذر منها ، ووضع البنات في المكانة اللائقة بهن ، وأوصى بحسن تربيتهن ورعايتهن ، مما يؤكد عظمة هذا الدين وإنسانيته .

٤ - حرمة الابتداع في الدين والتشريع المنافي لشرع الله - تعالى - وإن لم ينسب إلى الله - تعالى .

معانى الكلمات :

حرث : زرع . حجر : محرمة محجورة .

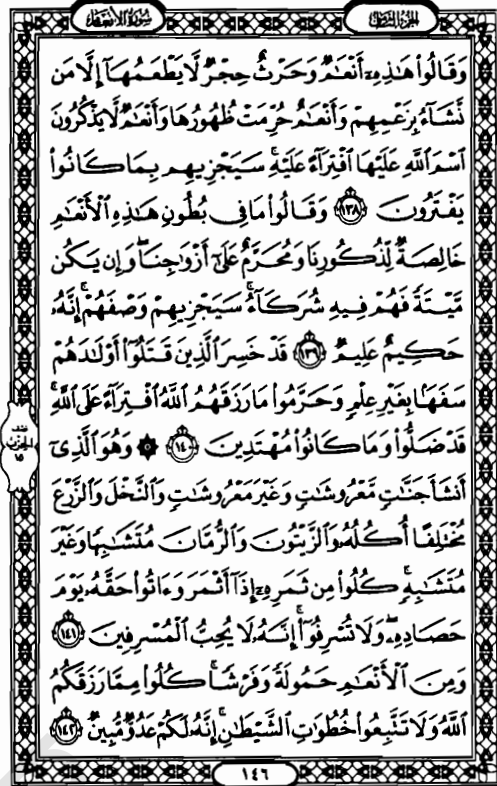
حرمت ظهورها : وهى البحائر والسواحب والحوامى أى الدواب التى كان يجرمها أهل الجاهلية . معروشات : محتاجة للتعريش كالعنب . فرشاً : ما يفرش للذبح مثل الغنم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - تنفيذ قبائح المشركين وجرائمهم فى الأقوال والأفعال ، والرد عليها .

٢ - بيان ضلالة وخسران من يخالفون منهج الله - عز وجل .

٣ - أن نشكر الله على ما امتن به علينا من رزق ونعم .



٤ - ألا نتبع خطوات الشيطان فهو لنا عدو مبين .

المحتوى التربوى :

ما زال السياق فى التنديد بأفعال العادلين برهم أصنامهم وأوثانهم ، فأخبر - تعالى - عما كانوا يتدعون من البدع ويشرعون من الشرائع بدون علم ولا هدى ولا كتاب مبين ، وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة ضروب من تشريع الجاهلية وأباطيلهم :

الأول : تحريمهم بعض الأنعام والحرث وجعلها لله وللآلهة التى يعبدونها مع الله .

الثانى : أنعام أى إبل حرموا ركوبها كالسائبة والحام .

الثالث : إبل لا يذكرون اسم الله عليها ، فلا يحجون عليها ولا يذكرون اسم الله عليها ، إن ركبوها بحال ولا إن حلوا عليها .

وقوله - تعالى - فى ختام الآية « أَفَرَأَى عَلَيْهِ أَى كَذَباً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ لَأنه تعالى ما حرم ذلك عليهم وإنما حرموه هم بأنفسهم ، وقالوا : حرمه الله علينا ؛ ولذا توعدهم الله تعالى على كذبهم هذا بقوله : « سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » ، ولم يقفوا عند هذا الحد من الافتراء بل زعموا أن الله شرع وحرم ما فى بطون بعض الأنعام على الإناث ، وجعلوها حلالاً للذكور خالصة لهم دون النساء ، فلا يشرب النساء من ألبانها ولا يأكلن لحوم أجنتها إن ذبحوها ولا يتنفعن بها

بحال ، اللهم إلا إن ولد الجنين ميتا ، فإنهم لا يحرمونه على النساء ولا يخصون به الذكور فيحل أكله للنساء والرجال معاً ؛ ولذا توعدهم بقوله : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أى سيثيبهم على هذا الكذب بما يستحقون من العذاب إنه حكيم في قضائه عليهم بعباده .

وأخبر الله - عز وجل - بخسران أولئك المشركين وضلالهم وعدم هدايتهم بقوله : ﴿ قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا ﴾ .

يقول صاحب الظلال : خسروا الخسارة المطلقة ، خسروا في الدنيا والآخرة ، خسروا أنفسهم وأولادهم ، خسروا عقولهم وأرواحهم ، خسروا الكرامة التى جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره ؛ وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد ؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد ! وقبل ذلك كله خسروا الهدى بخسارة العقيدة ، خسروا الخسارة المؤكدة ، وضلوا الضلال الذى لا هداية فيه ﴿ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

ويردهم الله إلى الحقيقة الأولية التى ضلوا عنها ، وهى أنه الخالق الرازق وهو الرب المالك ، الذى لا يجوز أن يُتصرف فى هذا المال إلا بإذنه ممثلاً فى شرعه ، وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده ، لا فيما يدعى الأرباب المقتصبون لسلطان الله أنه شريعة الله !

فالله - سبحانه - هو الذى خلق الجنات ابتداء - فهو الذى أخرج الحياة من الموت - وهذه الجنات منها الإنسيات المعروشات التى يتعهدا الإنسان بالعرائش والحوائط ؛ ومنها البريات التى تنبت بذاتها - بقدر الله - وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم .

وإن الله هو الذى أنشأ النخل والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال . وإن الله هو الذى خلق الزيتون والرمان ، متنوع الصنوف متشابهاً وغير متشابه ، وإنه سبحانه هو الذى خلق هذه الأنعام وجعل منها « حولة » عالية القوائم بعيدة عن الأرض حمالة الأثقال وجعل منها « فرشاً » صغيرة الأجسام قريبة من الأرض يتخذ من أصوافها وأشعارها الفرش .

إنه هو - سبحانه - الذى بث الحياة فى هذه الأرض ؛ ونوعها هذا التنوع ؛ وجعلها مناسبة للوظائف التى تتطلبها حياة الناس فى الأرض ، فكيف يذهب الناس - فى مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق - إلى تحكيم غير الله فى شأن الزروع والأنعام والأموال ؟

ويقول صاحب الظلال : « إن المنهج القرآنى يكتر من عرض حقيقة الرزق الذى يختص الله بمنحه للناس ، ليتخذ منها برهاناً على ضرورة إفراد الله - سبحانه - بالحاكمية فى حياة الناس . فإن الخالق الرازق الكافل وحده ؛ هو الحقيق بأن تكون له الربوبية والحاكمية والسلطان وحده بلا جدال .

وهنا يحشد السياق مشاهد الزرع والإثمار ، ومشاهد الأنعام وما فيها من نعم الله ، يحشد هذه المؤثرات في صدر قضية الحكم لله ، كما حشدها من قبل في صدد قضية الألوهية فيدل على أن هذه وتلك قضية واحدة في العقيدة الإسلامية .

وعندما يذكر الزرع والثمار يقول : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

والأمر بإيتاء حقه يوم حصاده هو الذى جعل الروايات تقول عن هذه الآية : إنها مدنية ، ولكن هذه الآية مكية ؛ لأن السياق في الجزء المكي من السورة لا يتصور تتابعه بدون هذه الآية ، فإن ما بعدها ينقطع عما قبلها لو كانت تأخرت حتى نزلت في المدينة ، وهذا الأمر بإيتاء حق الزرع يوم حصاده ، لا يتحتم أن يكون المقصود به الزكاة . وهناك روايات في الآية أن المقصود هو الصدقة غير المحددة ، أما الزكاة بأنصبتها المحددة فقد حددتها السنة بعد ذلك في السنة الثانية من الهجرة .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ينصرف إلى العطاء ، كما ينصرف إلى الأكل . فقد روى أنهم تباروا في العطاء حتى أسرفوا ، فقال الله سبحانه : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

ويذكرهم أن هذا رزق الله وخلقه ، والشیطان لم يخلق شيئاً . فما بالهم يتبعونه في رزق الله ، ثم يذكرهم أن الشيطان لهم عدو مبين ، فما بالهم يتبعون خطواته وهو العدو المبين ؟ !
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - ضرورة التسمية عند الذبح ، وعدم ذكر اسم غير اسم الله - تعالى - عليها .
- ٢ - ما ينذره بعض الناس اليوم من نذور للأولياء وإعطاؤهم شيئاً من الأنعام والحرث هو من عمل المشركين زينة الشيطان لبعض الناس .
- ٣ - حرمة قتل النفس لأى سبب كان ، وتحديد النسل اليوم وإلزام الأمة به من بعض الحكام من عمل أهل الجاهلية الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم كقتل البنات خشية العار ، وقتل الأولاد خشية الفقر .
- ٤ - نعم الله علينا كثيرة ، فيجب أن نشكره وأن نخرج زكاة أموالنا كل عام ، وزكاة زروعنا وثمارنا عند حصادها .
- ٥ - حرمة الإسراف في المال بأن تنفقه فيما لا يعنى ، أو ينفقه كله ولا تترك منه شيئاً فإنما الصدقة عن فضل مال .

معاني الكلمات :

وصاكم الله بهذا : أمركم الله بهذا التحريم .

طاعم يطعمه : أكل - أيا كان - يأكله .

دما مسفوحا : دما سائلا مهراقا .

رجس : قدر ، خبيث . اضطر : احتاج إلى أكله للضرورة . غير باغ : غير طالب للمحرم من أجل لذة ولا عادي : ولا زائد على قدر الضرورة .

ذى ظفر : ما له أصبع - دابة أو طيرا .

الحوايا : الأمعاء فيكون دهنها حلالا .

ما اختلط بعظم : ألية الضأن - اللية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١- بيان عاقبة الافتراء على الله - سبحانه

وتعالى - بغير ما شرع .



٢- أن نعرف حكم أكل المحرمات في حالة الاضطرار .

٣- أن نعرف الحكمة من تحريم بعض الأطعمة دون الأخرى .

٤- أن نوقن أن بأس الله لا يرد عن المجرمين .

المحتوى التربوي :

في هذه الآيات يأخذ السياق في مواجهة دقيقة يتبع بها مكانم الأوهام الجاهلية ، ليلقى عليها الضوء ؛ ويستعرضها واحداً واحداً ، وجزئية جزئية ، فيكشف عن السخف الذي لا يمكن تعليله ولا الدفاع عنه ، والذي قد ينجل منه صاحبه نفسه ، حين يكشف له في النور ؛ وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير .

فهذه الأنعام التي يدور حولها الجدل ؛ والتي ذكرتها الآيات ، هي ثمانية أزواج - وكل من الذكر والأنثى يُطلق عليها لفظ زوج عندما يكون مع رفيقه - زوج من الضأن وزوج من المعز ، فأى منها حرمه الله على أى من الناس ؟ أم إنه حرم أجنبتها في البطون ؟

﴿ نَتَّبِعُونَ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، فهذه الشؤون لا يفتى فيها بالظن ، ولا يقضى فيها بالحدس ، ولا يشرع فيها بغير سلطان معلوم ؛ وبقية الأزواج ذكر وأنثى من الإبل ؛ وذكر وأنثى

من البقر . فأياها كذلك حرم ؟ أم أجتتها هي التي حرمها الله على الناس ؟ ومن أين هذا التحريم ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ .

فحضرتهم وشهدتهم وصية الله لكم خاصة مستيقن بهذا التحريم ، فما ينبغي أن يكون هناك تحريم بغير أمر من الله مستيقن ، لا يرجع فيه إلى الرجم والظنون . وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد .. وقد كانوا يزعمون أن الله هو الذي شرع هذا الذي يشعرونه لذلك يعالجهم بالتحذير والتهديد : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : إنه لا أحد أظلم ممن يفترى على الله شريعة لم يأذن بها ، ثم يقول : شريعة الله ! وهو يقصد أن يضل الناس بغير علم ، إنما هو يحيلهم إلى هدى أو ظن ، أولئك لن يهديهم الله ؛ فقد قطعوا ما بينهم وبين أسباب الهدى ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

وبعد أن كشف لهم عما في معتقداتهم وتصوراتهم من وهن وسخف وهزال . وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس . وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التي يتصرفون فيها من عند أنفسهم ، أو بوحى شياطينهم وشركائهم . بينما هؤلاء لم يخلقوها لهم ، إنما الذي خلقها لهم هو الله ، الذي يجب أن تكون له وحدة الحاكمية فيما خلق وفيما رزق ، وفيما أعطى من الأموال للعباد .

يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله . ما حرمه الله حقاً عن بينة ووحى ، لا عن ظن وهم . والله هو صاحب الحاكمية الشرعية ، الذي إذا حرم الشيء فهو حرام ، وإذا أحله فهو حلال ، بلا تدخل من البشر ولا مشاركة ، ولا تعقيب في سلطان الحاكمية والتشريع ، وبالمناسبة يذكر ما حرمه الله على اليهود خاصة ، وأحله للمسلمين ، فقد كان عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبعدهم عن شرع الله !

وهذا إعلان من الله - جل ثناؤه - للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به ، أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرمه الله ، وأن الذي زعموا أن الله حرمه حلال أحله الله ؛ وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله .

يقول أبو جعفر بن جرير الطبري في تأويل قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : « إن معناه : فمن اضطر إلى أكل ما حرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم خنزير ، أو ما أهل لغير الله به ، غير باغ في أكله إياه تلذذاً ، لا لضرورة حالة من الجوع ؛ ولا عادي في أكله بتجاوزه ما حدّه الله وأباحه له من أكله ، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك ، لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه ، فلا حرج عليه في أكله من ذلك

﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فيما فعل من ذلك ، فسأتر عليه ، بتركه عقوبته عليه ولو شاء عاقبه عليه ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه ، ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه .

فأما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ذى ظفر من الحيوان - أى كل حيوان قدمه غير مشقوقة ، وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط ، وحرم كذلك شحم البقر والغنم - إلا شحم الظهر ، أو الدهن الملتف بالأعضاء ، أو ما اختلط منه بالعظم ، وكان ذلك عقوبة لهم على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه .

والنص يبين سبب هذا التحريم ، وهو سبب خاص باليهود ، ويؤكد أن هذا هو الصدق ، لا ما يقولونه هم من أن إسرائيل ، وهو يعقوب جدّهم ، هو الذى حرم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرم على نفسه ، لقد كان هذا مباحاً حلالاً ليعقوب ، ولكنه حرم عليهم بعد ما بغوا . فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

فقل : ربكم ذو رحمة واسعة بنا ، وبمن كان مؤمناً من عباده ، وبغيرهم من خلقه . فرحمته - سبحانه - تسع المحسن والمسيء ؛ وهو لا يعجل على من استحق العقاب ؛ حلماً منه ورحمة فإن بعضهم قد يتوب إلى الله ، ولكن بأسه شديد لا يرد عن المجرمين إلا حلمه ، وما قدره من إمهالهم من أجل مرسوم ، وهذا القول فيه من الإطعام فى الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالأس ، والله الذى خلق قلوب البشر ؛ يخاطبها بهذا وذاك ، لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب .

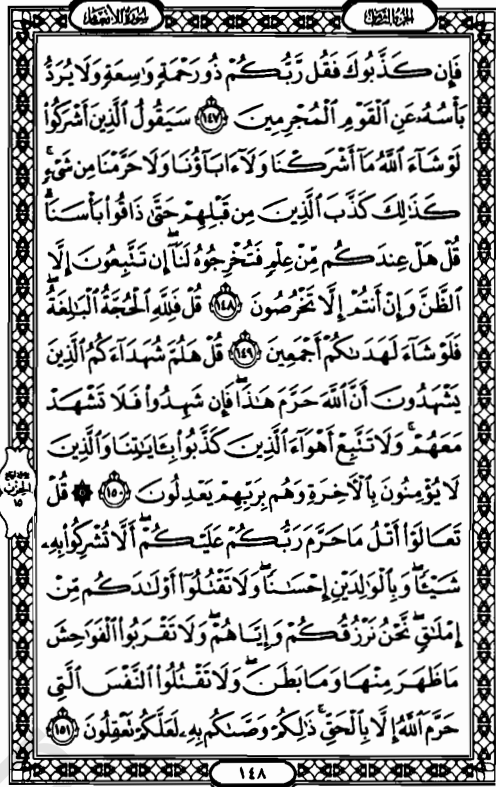
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - أهل الشرك والكفر - دائماً - يجادلون بالباطل ، ويفترون على الله الكذب .
- ٢ - حرم الله - تعالى - الشرك بجميع أنواعه ؛ فيجب أن نخص الله وحده بالعبادة ولا نشرك به أحداً .
- ٣ - ليس هناك أظلم ممن يفترى على الله الكذب فيحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله .
- ٤ - حرم الله - تعالى - على عباده من الأطعمة ما يضر بصحتهم ، وما يكون خبيثاً لا تستطيعه النفوس المستقيمة مثل الميتة والدم المسفوح والخنزير والكلب .
- ٥ - لا حرج على المضطر إذا أكل من المحرمات بقدر الضرورة إذا خشى على نفسه الهلاك .
- ٦ - عاقب الله اليهود فحرم عليهم بعض الأطعمة ؛ لأنهم بغوا وخالفوا أوامر الله .
- ٧ - إمهال الله - تعالى - المجرمين لا يدل على عدم عقوبتهم فإن بأس الله لا يُرد عن القوم المجرمين .

معاني الكلمات :

- لا يرد بأسه : لا يدفع عذابه ونقمته .
 تحرصون : تكذبون على الله - تعالى .
 الحجة البالغة : بإرسال الرسل وإنزال الكتب . هلم شهداءكم : أحضروا .
 اتل : اقرأ . إملاق : فقر . الفواحش : الذنوب القبيحة . ما بطن : ما خفى .
 الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نوقن أن بأس الله لا يرد عن القوم المجرمين .
 ٢ - أن نقف عند حدود وصية النبي ﷺ في الآيات ونلتزم بها .
 ٣ - أن نعلم أن تشريعات الإسلام جاءت لحماية المجتمع وسعادة الإنسان في



الدارين .

٤ - أن نعلم أن كمال العقل باجتنب المحرمات الخمسة الواردة في الآيات .

المحتوى التربوي :

بعد أن واصل السياق تضيق الخناق على هؤلاء المجرمين الذين يفترون على الله الكذب ويحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ، وبعد ما سدّ الذرائع في وجوههم ، يواجه مهرهم الأخير الذين يحيلون عليه شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم ، إنهم يقولون : إنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال ، فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء .

لقد واجه القرآن هذا الادعاء بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله . وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد ، ويصحح لهم منهج الفكر والنظر ، فالله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات ، وهذا ما يملكون أن يعلموه علماً مستيقناً ، فأما مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقيناً فكيف يحيلون عليه : ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : إن الله أوامر ونواهي معلومة علمياً قطعياً ، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية ؛ ليمضوا وراء الخدس والخرص في واد لا يعلمونه ؟

لقد جاء هذا الدين ليحقق واقعاً عملياً ، تحدده أوامر ونواه حقيقية ، فالإحالة على المشيئة الغيبية دخول في متاهة ، يرتادها العقل بلا دليل ، ومضيعة للجهد الذي ينبغي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي المشهود .

هذا هو فصل القول في هذه القضية ، إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكتفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيهِ ؛ ليكتفوا أنفسهم على حسبها ، وهم حين يحاولون هذا يقرر الله - سبحانه - أنه يهديهم إليه ، ويشرح صدورهم للإسلام . وهذا حسبهم في القضية التي تبدو عندئذ - في واقعها العملي - يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته !

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى ، أو يقهرهم على الهدى ، أو يقذف بالهدى في قلوبهم فيهتدوا بلا قهر ، ولكنه - سبحانه - شاء غير هذا ! شاء أن يتلى بني آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال ؛ ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عمايته ، وجرت سنته بما شاء .

وأخيراً يوجه الله - سبحانه - رسوله ﷺ إلى مواجهة المشركين في موقف الإشهاد على قضية التشريع ، كما واجههم من قبل في موقف الإشهاد على قضية الألوهية في أوائل السورة . حيث قال له : ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾ الآية وهنا قال له : ﴿ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ الآية .

ويصم الله الذين يزاولون حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به الله بأنهم يكذبون بآيات الله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربههم يعدلون أى يجعلون له أنداداً تعدله . وحكم عليهم - سبحانه - بأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، فالذى يؤمن بالآخرة ، ويوقن أنه ملاق ربه يوم القيامة ، لا يمكن أن يعتدى على ألوهية الله ، ويدعى لنفسه حقه الذى يتفرد به ، وهو حق الحاكمية المطلقة في حياة البشر . ممثلة هذه الحاكمية في قضائه وقدره ، وفي شريعته وحكمه .

وبعد موقف الإشهاد ورفض ما يقررونه من المحرمات ، يلقي إليهم بالمقررات الإلهية التى تتضمن ما حرمه الله حقاً ، وسنجد إلى جانب ما حرمه بعض التكاليف الإيجابية التى لها مقابل محرم ، وهذه المحرمات تبدأ بالمحرم الأول ، وهو الشرك بالله ؛ لأن هذه هى القاعدة الأولى التى يجب أن تنقرر ؛ لتقوم عليها المحرمات والنواهي ، لمن استسلم لها وأسلم .

وبالنظر في هذه الوصايا التى ترد في هذا السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والشئار وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها - فإذا هى قوام الدين كله ، إنها قوام حياة الضمير

بالتوحيد ، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة ، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجرى فيه من معاملات ، وقوام حياة الإنسان وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات ، مرتبطة بعهد الله ، كما أنها بدئت بتوحيد الله .

يقول صاحب الظلال : « قل تعالوا أقض عليكم ما حرمه عليكم ربكم - لا ما تدعون أنتم أنه حرمه بزعمكم - ! لقد حرمه عليكم « ربكم » الذى له وحده حق الربوبية - وهى القوامة والترية والتوجيه والحاكمية - وإذن فهو اختصاصه ، وموضع سلطانه . فالذى يحرم هو « الرب » والله هو وحده الذى يجب أن يكون ربا » .

إن الله قبل أن يوصى الناس أى وصية ، أوصاهم ألا يشركوا به شيئا ، فى موضع من السياق القرآنى يحدد المعنى بالشرك الذى تبدأ بالنهى عنه جميع الوصايا ! إنها القاعدة التى يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة ، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذى ترجع إليه فى كافة الروابط ، فلا تظل مهبا لريح الشهوات والنزوات .

ثم يوصى بتدعيم رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة فأوصى الأبناء بالآباء ؛ وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، والارتباط بربوبيته المتفردة وقال لهم : إنه هو الذى يكفل لهم الرزق ، فلا يضيّقوا بالتبعات تجاه الوالدين فى كبرهما ، ولا تجاه الأولاد فى ضعفهم ، ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعا .

ووصاهم بالقاعدة التى تقوم عليها المجتمع كله ، وهى قاعدة النظافة والطهارة والعفة فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيتها ؛ فإنه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ، فى وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن إنه لابد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة ، وليقوم المجتمع والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع .

وينهى عن قتل النفس المفردة ، كما سبق ونهى عن قتل الجماعة بالزنا ، ومن قبلها قتل الفطرة بالشرك ، والمجتمع الذى تشيع فيه المقاتل والثارات ، مجتمع مهدد بالدمار ، ومن ثم جعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم أقصى العقوبات ؛ لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

- ١ - حرم الله - تعالى - الشرك بجميع أنواعه ، فيجب أن نخص الله وحده بالعبادة .
- ٢ - ضرورة الإحسان إلى الوالدين وحسن معاملتهما وطاعتهما فى غير معصية الله - تعالى - وتحريم قتل الأولاد بسبب الفقر وغيره تكريماً للإنسانية الإنسان .
- ٣ - تحريم قبائح الذنوب وكبائر المعاصى التى لا يفعلها عاقل سواء منها الظاهر أو الخفى .
- ٤ - تحريم قتل النفس والعدوان على نفوس الآخرين .

معانى الكلمات :

حتى يبلغ أشده : حتى يكبر ويصبح قادراً
على التصرف السليم . بالقسط : بالعدل .
إلا وسعها : إلا ما تستطيعه بلا مشقة
مُعجزة . صراطى : طريقى . السبل : الطرق .
الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتجنب الفواحش ما ظهر منها
وما بطن .
- ٢ - أن ندفع مال اليتيم إليه إذا بلغ
أشده .
- ٣ - أن نؤدى الحقوق إلى أهلها دون
انتقاص منها .
- ٤ - أن نفى بالعهود مع الله ، ومع
الناس ، ومن نكث فإننا ينكث على نفسه .



المحتوى التربوى :

قبل أن يمضى السياق فى بيان المحرمات والتكاليف ، يفصل بين هذا القسم والذى سبقه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه ﴿ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وأردف بأدب جم من آداب هذا الدين وهو رعاية اليتيم وكفالاته ؛ فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم ، فيصونه وينميه ، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده - أى اشتداد قوته الجسمية والعقلية ؛ ليحمى ماله ، ويحسن القيام عليه وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضواً نافعاً ؛ وسلمته حقه كاملاً .

ولأن المعاملات فى هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة ربط السياق القرآنى بين قواعد التعامل فى المال والتجارة والبيع والشراء ؛ وبين العقيدة للدلالة على طبيعة هذا الدين وتسويته بين العقيدة والشريعة ، وتسويته بين العقيدة والشريعة بين العبادة والمعاملة فجاء قوله - تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْكَفْلِ وَالْعِمْرَانِ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

ويرتفع الإسلام بالضمير البشرى - وقد ربطه بالله ابتداء - إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله ومراقبته، وبأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبه الله وحده ، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى ،

وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ؛ وهو - سبحانه - أقرب إلى المرء من حبل الوريد ، لذا يُعقب على هذا الأمر - وعلى الوصايا السابقة - مذكراً بعهد الله : ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ .

ومن عهد الله قوله الحق والعدل ولو كان ذا قرى ، ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط إلا بالحق . وقبل ذلك كله من عهد الله أى يشركوا به شيئاً ، فهذا هو العهد الأكبر المأخوذ على فطرة البشر ، بحكم خلقتها متصلة بمبدعها ، شاعرة بوجوده فى النواميس التى تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها .

ثم يحىء التعقيب القرآنى فى موضعه بعد التكاليف بالوصاة العشر ليكون الذكر ، والقلب الذاكر غير الغافل ، وهو يذكر عهد الله كله ، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها .

يقول صاحب الظلال : « هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقيدة الإسلامية ، وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله ، ... هذه هى صراط الله المستقيم » .

وبعد فهذه هى صراط الله المستقيم ، صراط الله الذى ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن سبيله ، وتلك وصية الله لعباده بُغية التقوى ، فالتقوى هى مناط الاعتقاد والعمل ، والتقوى هى التى تفىء بالقلوب إلى السبيل .

وصراط الله المستقيم ممتد عبر الرسالات ، ومنه أقرب شريعة للإسلام ، شريعة موسى عليه السلام ؛ وقد أعطاه الله كتاباً فصل فيه كل شىء ، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله فى الآخرة . وتربط الآيات الكتاب الجديد المبارك ، الملتحم بالكتاب الذى أنزل على موسى ، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها ، رجاء أن ينال الناس - حين يتبعونها - رحمة الله فى الدنيا والآخرة : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

ولقد نزل هذا الكتاب قطعاً لحجة العرب ، كى لا يقولوا : إنه لم يتنزل علينا كتاب كالى تنزل على اليهود والنصارى ؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكننا أهدى منهم ، فهذا هو ذا كتاب يتنزل عليهم ، ويقطع هذه الحجة عليهم ، فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم .

يقول صاحب الظلال : « لقد شاء الله - سبحانه - أن يرسل إلى قومهم بلسانهم حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة أرسل الله محمداً خاتم النبيين للناس كافة . فهو آخر رسول من الله للبشر ، فناسب أن يكون رسولاً إليهم أجمعين ، والله يقطع الحجة على العرب أن يقولوا : إن كلا من موسى وعيسى إنما أرسلا إلى قومهما ، ونحن كنا غافلين عن دراستهم لكتابهم ، لا علم لنا به ولا اهتمام ، ولو جاء إلينا كتاب بلغتنا ، يخاطبنا وينذرنا لكننا أهدى من أهل الكتاب ، فقد جاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم - وإن كان رسولاً للناس أجمعين - وجاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم ، يحمل إليهم حقائق بينة كذلك لا لبس فيها ولا غموض . وهو هدى لما فيه من ضلال ، ورحمة لهم فى الدنيا والآخرة » .

فإذا كان ذلك فمن أشد ظلماً ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهى تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح؟ فمن أشد ظلماً لنفسه وللناس بصدده لنفسه، وللناس عن هذا الخير العظيم، وبإفساده فى الأرض بتصورات الجاهلية وتشروعاتها .. إن الذين يعرضون عن هذا الحق فى طبعهم آفة تميلهم عنه ؛ كالأفة التى تكون فى خف البعير فتجعله يصدف أن يميل بجسمه ولا يستقيم .. وهم مستحقون سوء العذاب بصدوفهم هذا وميلهم .

ويقول صاحب الأساس ، فى التشابه بين القرآن والتوراة : « قال كعب الأحبار » : إن هذه الآيات لأول شىء فى التوراة « أى : هذه الوصايا العشر المذكورة فى أوائل التوراة ، وقد تتبع ما يسمونه الآن بالتوراة فوجدت فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهو السفر الثانى من أسفار التوراة : « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ... » وهذا وما بعده يقابل « أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » « أكرم أباك وأمك ... » وهذا يقابل : « وَيَا لَوِ الدِّينَ إِحْسَنًا » « لا تقتل » وهذا يقابل « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ » . (ولا تقتلوا النفس) . « لا تزني » وهذا يقابل : « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ » « لا تسرق » وهذا يقابل : « وَأَوْفُوا بِالْعَيْثِ وَالْعِمْرَانِ » . « لا تشهد على قريب شهادة زور » وهذا يقابل : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا » وفى الإصحاح الخامس من سفر التثنية هذه الفقرات :

« لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة ما ، فما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من أسفل ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن ؛ لأننى أنا الرب إلهك إله غيور ... » . « لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً ... » . « أكرم أباك وأمك أوصاك الرب إلهك » « لا تقتل ولا تزني ولا تسرق ولا تشهد على قريب شهادة زور ولا تشته امرأة قريبك » .

ولو أننا نظرنا إلى هذه الوصايا فى التوراة ، لوجدناها تقابل بشكل ما الوصايا العشر فى القرآن ، مع الاختلاف فى محتوى بعض الألفاظ مما خالفت فيه شريعتنا شريعتهم بأمر الله ونسختها ؟ وهذا دليل على تواصل الرسالات وانتظامها سبيلاً وطريقاً مستقيماً واحداً .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .
- ٢ - وجوب رعاية مال اليتيم والمحافظة عليه حتى يبلغ أشده .
- ٣ - وجوب أداء الحقوق إلى أهلها من غير نقص فى كيل أو ميزان أو غيرهما .
- ٤ - وجوب الوفاء بالعهد مع الله ومع الناس والتحذير من نقض العهود ومخالفة الوعود .
- ٥ - دين الله واحد ، فقد دعا الأنبياء جميعاً إلى توحيد الله وفعل الخيرات والبعد عن الشر .

معاني الكلمات :

يأتى ربك : إيتاء يليق بجلاله - تعالى .

شيعاً : فرقاً وأحزاباً فى الضلالة . قيماً :

يقوم به أمر الناس . نسكى : عبادتى .

لا تزر وازرة : لا تحمل نفس آثمة .

وزر: الحمل الثقيل (الذنب) . أبغى : أريد ،

وأقصد . يبلوكم : يختبركم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن يعلم المسلم أن الفرقة فى الدين

مألها الكفر والخسران المبين .

٢ - أن يستشعر المؤمن اتصاله بركب

الأنبياء من لدن آدم عليه السلام وحتى محمد

خاتم الأنبياء .

٣ - أن يتوجه المسلم بكل ما فى حياته



وما يسعى إليه فى مماته لله رب العالمين .

٤ - أن يدرك المؤمن قاعدة الحساب والجزاء فى الإسلام .

المحتوى التربوى :

بعد انقطاع المحجة بنزول القرآن ، لا يزال العرب يشركون ، ويشرعون من عند أنفسهم ، ويزعمونه شريعة الله ، بينما كتاب الله قائم وليس فيه هذا الذى يفترونه ، وما يزالون يطلبون الآيات والخوارق ليصدقوا بهذا الكتاب ويتبعوه ، ولو جاءتهم الآيات التى يطلبون أو بعضها لكان فيها القضاء الأخير كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ الآية إنه التهديد الواضح الحاسم ، فقد مضت سنة الله بأن يكون عذاب الاستتصال حتماً إذا جاءت الخارقة ثم لم يؤمن بها المكذبون . والله - سبحانه - يقول لهم : إن ما طلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقضى عليهم بعده وإنه يوم تأتى بعض آيات الله تكون الخاتمة التى لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل لنفس لم تؤمن من قبل ، ولم تكسب عملاً صالحاً فى إيمانها . فالعمل الصالح هو دائماً قرين الإيمان وترجمته فى ميزان الإسلام . بعد ذلك يلتفت السياق إلى رسول الله ﷺ ليفرده وحده بدينه وشريعته ومنهجه وطريقه عن كل الملل والنحل والشيع القائمة فى الأرض - بها فيها ملة المشركين العرب .

يقول صاحب الظلال : بمناسبة قوله - تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَأَنتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ إنه مفرق الطريق بين الرسول ﷺ ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل ، سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أهواء الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها ، شيعة وفرقا وقبائل وعشائر وبطونا . أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللاً ونحلاً ومعسكرات ودولاً .

إن الدين عند الله الإسلام ، ورسول الله ﷺ ليس في شيء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام ، وإن الدين عند الله هو المنهج والشرع ، ورسول الله ﷺ ليس في شيء ممن يتخذون غير منهج الله منهجاً ، وغير شريعة الله شرعاً . وفي ختام السورة - وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع والحاكمية - يقول صاحب الظلال - رحمه الله - في ظلاله : تجيء التسيبحة الندية الرخية ، في إيقاع حبيب إلى النفس قريب : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُسُكِي وَنَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الآيات « ويلمس في كل آية أعماق القلب البشري لمساة دقيقة عميقة في مكان التوحيد ، توحيد الصراط والملة ، توحيد المتجه والحركة ، توحيد الإله والرب . توحيد العبودية والعبادة مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسنته ومقوماته .

وفي الآيات الإعلان الذي يوحى بالشكر ، ويشى بالثقة ، ويفيض باليقين ، والثقة بالصلة الهادية ، صلة الربوبية الموجهة المهيمنة الراعية ، والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذي لا التواء فيه ولا عوج : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ ، وهو دين الله القديم منذ إبراهيم أبى هذه الأمة المسلمة المبارك المخلص المنيب : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وكذلك في الآيات التجرد الكامل لله ، بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة ، بالصلاة والاعتكاف ، وبالمحيا والممات ، بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه ، وتمضي التسيبحة الندية بحلاوتها في آفاق الكون تنقضي السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن ؛ وتشتمل كل مخلوق مما يعلم الإنسان ومما يجهل ؛ وتجمع كل حادث وكل كائن في السر والعلانية ثم تظللها كلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن في هذا الكون الهائل ؛ وتعبدتها كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة بقوله - تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الآيات .

ونتساءل مع صاحب الظلال :

- أغير الله أبغى ربا يحكمنى ويصرف أمرى ويهيمن على ويقومنى ويوجهنى ؟ وأنا مأخوذ بنيتى وعملى محاسب على ما أكسبه من طاعة ومعصية ؟

- أغير الله أبغى ربا ، وهذا الكون كله في قبضته ؛ وأنا وأنتم في ربوبيته ؟

- أغير الله أبغى ربا ، وكل فرد مجزى بذنبه لا يحمله عنه غيره ؟ ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

- أغير الله أبغى ربا وإليه مرجعكم فيحاسبكم على ما كنتم تختلفون فيه ؟

- أغير الله أبغى ربا ، وهو الذى استخلف الناس فى الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات فى العقل والجسم والرزق ، ليبتلهم أيشكرون أم يكفرون ؟

- أغير الله أبغى ربا ، وهو سريع العقاب ، غفور رحيم لمن تاب ؟

- أغير الله أبغى ربا ، فأجعل شرعه شرعاً ، وأمره أمراً ، وحكمه حكماً .

وهذه الدلائل والمواحيات كلها حاضرة ؛ وكلها شاهدة ؛ وكلها هادية إلى أن الله وحده هو الرب الواحد المتفرد ؟

وكما يقول صاحب الظلال : إنها تسيحة التوحيد الرضية الندية ؛ تتجلى من خلالها ذلك المشهد الباهر الرائع . مشهد الحقيقة الإيمانية ، كما هى فى قلب رسول الله ﷺ - وهو مشهد لا يعبر عن روعته وبهائه إلا التعبير القرآنى الفريد .

وهكذا حشدت هذه الصورة حشوداً عن حقيقة الألوهية بروعتها وبهائها وجلالها وجمالها ، وحقيقة الكون والحياة ، وحقيقة النفس الإنسانية بأغوارها وأعماقها ، ومشاهد القيامة ومواقف الحشر ، ولحظات كربة وضيق ، ولحظات أمل واستبشار ، ولقطات من تاريخ الإنسان فى الأرض ، ولقطات من تاريخ الكون والحياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الإسلام رسالة الاستقامة والهدى للبشرية جمعاء ، وهو دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام .

٢ - يجب أن نقصد الله بكل أقوالنا وأفعالنا ، وكل ما نعمله فنحيا عليه ، وما نسعى إليه فنموت عليه فيكون كله لله رب العالمين .

٣ - يجب أن نعتقد بأن الله - تعالى - وحده هو النافع الضار وهو القادر على كل شيء .

٤ - كل إنسان مسؤول عن نفسه ، وسيجازى بما عمل ، ولن تتحمل نفس ذنب نفس أخرى .

٥ - امتحن الله الناس بالغنى والفقر ، والخير والشر ، والسعيد من نجح فى امتحان الدنيا بالإيمان الصادق والعمل الصالح .